وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

كلية: العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم: التاريخ

الرقم التسلسلي: .....

رقم التسجيل: .....

عنوان المذكرة

خير الدين التونسي حياته وأطروحاته الإصلاحية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر أكاديمي

تخصص تاريخ الوطن العربي المعاصر

إعداد الطالبين:

ياسين شيخ

محمد الأمين بوغرارة

تحت اشراف الدكتور:

عبد القادر خليفي

أمام لجنة المناقشة:

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
1	صالح لميش	أستاذ	جامعة المسيلة	رئيسا
2	عبد القادر خليفي	أستاذ محاضر	جامعة المسيلة	مشرفا ومقررا
3	إبراهيم مرزقلال	أستاذ محاضر	جامعة المسيلة	ممتحنا

السنة الجامعية:

2021-2020

الإهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

" رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين " النمل (19) وصدق حبيب الله حين قال " من لم يشكر الناس لم يشكر الله ومن أسدى اليكم معروفا فكافئوه فان لم تستطيعوا فادعوا له "

اللهم اني أشكرك على نعمتك وأحمدك عليها ... اللهم اني أشكرك على كل طريق صعب يسرته لي ،والحمد لله الذي وفقني في لانجاز هذا العمل والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين.

يسرني ويشرفني في نهاية هذا العمل أن أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان وخالص الدعاء الى من أفنيا حياتهما وكل غايتهما في نجاحي وارتقائي، رب احفظهما وأدمهما نعمة أمي الحنونة وأبي الغالي أستاذي في الحياة.

وأتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ المشرف " " الذي لم يبخل علينا بتوجيهاته وإرشاداته ونصائحه القيمة خلال انجاز هذا العمل أعانه الله في كل دربه سلكه فقد كان نعم الأستاذ ونعم المشرف .

شكرا لكم جميعا

فتقبلوا منا فائق الاحترام وعميق التقدير

قائمة المختصرات:

الرمز	الكلمة
تع وتق	تعليق وتقديم
مج	مجلد
تر	ترجمة
ع	العدد
تعر وتع وتق	تعريب وتعليق وتقديم
(د.م)	دون مكان
(د.ت)	دون تاريخ
(د.ن)	دوم ناشر
ج	الجزء
ص	الصفحة
م	ميلادي
هـ	هجري
ط	الطبعة
ت	توفي

مقدمة

مقدمة:

لقد حملت نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، والقرن الذي تلاه، ملامح جلية لتحولات اجتماعية عميقة، وتطورات صناعية كبيرة ومتسارعة، رافقتها حركية علمية بارزة، مكّنت أوربا المسيحية من تصدر المشهد العالمي سياسيا وعسكريا واقتصاديا، فاكتسحت بجيوشها وبضاعتها أصقاع الدنيا، مستهدفة فضاءات شاسعة افريقية وآسيوية بحركة استعمارية، تحت غطاء رسالة التمدين للشعوب المتخلفة، وفي ظل هذه التحديات الزاحفة، كان العالم العربي والإسلامي يعيش حالة ركود حضاري، وتخلف فكري، وتدهور اقتصادي، وتضعضع لبنياته الاجتماعية، فكان واقعه يستدعي إذن تدخلا عاجلا لانتشاله من تلك الحالة البائسة التي كان عليها، وهي المهمة الخطيرة والحساسة التي تصدى لها جملة من الرواد والمفكرين والمصلحين من ذوي المشارب الفكرية المتنوعة، ظهروا على امتداد الرقعة الجغرافية العربية مشرقا ومغربا، حيث عملوا جاهدين على طرح مشاريع إصلاحية وتجديدية، هدفت اللحاق بالتطورات الحاصلة ومواكبة العصر، ولعل من الأسماء التي تركت بصماتها واضحة في هذا المضمار، نجد المصلح التونسي خير الدين، الذي لا يمكن تجاهل حقيقة المساهمة التي قدمها لصالح النهضة العربية الحديثة، ومن ثمة، واستحضارا لهذا الدور البارز ارتأينا إفراده بهذه الدراسة التي وسمناها: " **خير الدين التونسي حياته وأطروحاته الإصلاحية**".

أسباب اختيار الموضوع:

تشابكت دواعي اختيارنا لهذا الموضوع بين عوامل ذاتية وأخرى موضوعية، وقد لعب تحفيز أستاذنا المشرف الدكتور عبد القادر خليفي، دورا أساسيا للخوض في ثناياه، ويمكننا أن نستعرض بإيجاز أهم تلك الدواعي:

أ- الأسباب الذاتية:

- ✓ الرغبة في دراسة سير الأعلام، والتعرف على أحد أهم رواد الإصلاح الذين أسهمت بهم منطقة المغرب العربي في المشروع النهضوي العربي.

ب- الأسباب الموضوعية:

- ✓ السعي إلى إبراز محتوى البرنامج الإصلاحي الذي طرحه خير الدين التونسي، وإظهار مكانته بين معاصريه من المصلحين؛

- ✓ تسليط الضوء على مرحلة هامة جدا من تاريخ المنطقة العربية؛
- ✓ تقديم مساهمة علمية في ميدان الدراسات التاريخية التي تهتم بمجال الفكر والإصلاح في الوطن العربي.

الإشكالية:

تتمحور إشكالية هذه الدراسة حول اكتشاف طبيعة واتجاه الفكر الإصلاحي الذي طرحه خير الدين التونسي ومدى ملاءمته للعصر، ويتفرع عنها عدد من التساؤلات على النحو الآتي:

- ✓ من هو خير الدين التونسي؟
- ✓ ما هي المؤهلات الثقافية التي حازها والمناصب التي تولاها؟
- ✓ ما هي طبيعة الأزمات التي واجهتها تونس والدولة العثمانية في عصره؟
- ✓ فيم تتجلى إسهاماته الإصلاحية؟
- ✓ ما هي الدسائس والعراقيل التي واجهته في مساره الإصلاحي؟
- ✓ إلى أي مدى استطاع خير الدين أن يحقق أهدافه الإصلاحية؟

مناهج البحث:

اعتمدنا في دراستنا على المنهجين التاريخي الوصفي والتحليلي النقدي، حيث وظّفنا الأول في رصد الأحداث المتعلقة بالعصر، وترتيبها وفقا لتسلسلها الزمني، ووضعها في سياقها التاريخي، واستخدمنا الثاني في تحليل المعطيات، ومحاولة تفسير المواقف، بغرض الوصول إلى تقديم مقاربة موضوعية لحقيقة الدور الذي اضطلع به الرجل.

وصف لأهم المصادر والمراجع

اعتمدنا في هذه الدراسة على مجموعة من المصادر والمراجع أهمها:

❖ **المصادر**

- ✓ كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك لخير الدين التونسي، حيث أفادنا في معرفة شخصيته، وأهم أفكاره والإصلاحات التي جاء بها؛

- ✓ كتاب إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، لأحمد بن أبي الضياف، الذي أفادنا في التطرق إلى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بتونس خلال القرن 19م؛
- ✓ كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، لمحمد بيرم الخامس، الذي أفادنا هو الأخر في الفصل الثالث.

❖ **المراجع:**

- ✓ أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، حيث أفادنا في تتبع نشاط خير الدين التونسي، والوقوف على بعض محطات حياته وطفولته؛
- ✓ سمير أبو حمدان، خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية، والذي أفادنا في الاطلاع على أوضاع تونس في القرن 19م؛
- ✓ أحمد عبد السلام، مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، حيث عرض لنا أهم الإصلاحات التي طرحها خير الدين آنذاك.

خطة البحث:

اعتمادا على ما توفر لدينا من مادة مرجعية، قمنا بتقسيم بحثنا إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، حيث تناولنا في الفصل الأول الذي كان بعنوان "**تونس والدولة العثمانية عصر خير الدين التونسي**"، طبيعة الأوضاع العامة بتونس خلال القرن 19م، كما سلطنا أضواء مختصرة حول أحوال الدولة العثمانية في ذات الفترة.

وتضمن الفصل الثاني، الذي جاء تحت عنوان "**خير الدين التونسي: سيرة ومسار**"، الحديث عن مولده، وطفولته، وطبيعة تكوينه وعناصر ثقافته، وأهم المناصب التي تقلّدها، والمهمات التي تولاها.

أما الفصل الثالث جاء تحت عنوان " **أفكاره الإصلاحية مجالات–مرتكزاته**"، فقد عالجنا فيه الإصلاحات التي باشرها، في ميادين متنوعة، وتوقفنا عند أهم العقبات التي واجهته، وأبرزنا صدى تجربته.

وأنهينا الدراسة بخاتمة تضمنت خلاصة ما توصلنا إليه، ووضعنا ملاحق وفهرسا للموضوعات.

الصعوبات المعترضة:

لا يكاد يخلو أي بحث علمي من العراقيل، ومن بين تلك التي واجهتنا نذكر:

- ✓ عدم توفر مكتبة الجامعة على مصادر ومراجع تخدم البحث؛
- ✓ الوضع الصحي المرتبط بجائحة كوفيد 19 وتداعياته على التواصل والتنقل؛
- ✓ تشعب بعض جزئيات الموضوع في المصادر والمراجع.

وفي الأخير نكرر شكرنا الجزيل بالدرجة الأولى للأستاذ المشرف، على ما تفضل به علينا من نصائح وتوجيهات منذ لحظة اختيارنا الموضوع، إلى أن صار على النحو الذي هو عليه، وإلى كل من ساعدنا في انجاز البحث ولو بالقليل.

وما عسانا أن نقول، سوى أن كل عمل ينجزه صاحبه إلا ويعتريه النقصان، فإذا أخطأنا فذلك من أنفسنا، وإذا ما أصبنا فذلك من الله الذي أعاننا في عملنا هذا، فله الشكر في الأولى والآخرة.

الفصل الأول: تونس والدولة العثمانية عصر خير الدين التونسي

المبحث الأول: الخصائص السياسية العامة للحالة السياسية

المبحث الثاني: البيئة الثقافية والاجتماعية

المبحث الثالث: الواقع الاقتصادي

الفصل الأول: تونس والدولة العثمانية عصر خير الدين التونسي

المبحث الأول: الخصائص السياسية العامة للحالة السياسية

أولا: تونس.

لم تكن تونس إبان القرن التاسع عشر الميلادي تختلف كثيرا عن أي ولاية عربية أخرى تابعة للدولة العثمانية، وعندما قدم إليها خير الدين كان الهرم قد بدأ يدب الى مفاصلها والفوضى في كل مكان، وليس ثمّة من يحاسب ويراقب[1]، عكس ما شهدته أوربا من تقدم وازدهار علمي وصناعي، حيث يعتبر هذا القرن علامة تشهد على التغيير الحاصل في ميزان القوى بين الجهتين، والتي كانت في تراجع ملحوظ منذ **1815م**، وهو ما عرف بالقرن العصيب[2].

وقد تميزت الأوضاع في تونس بالتالي:

- تدهور الأوضاع الداخلية بعد وفاة حمودة باشا في **16 سبتمبر 1814م**، هو الباي الذي عرفت الدولة الحسينية في عهده أوج عطائها وازدهارها[3]، حيث كان لا يستغني عن مشورة رجال الدولة في كل صغيرة وكبيرة، وبعد وفاته اض1طربت الأوضاع السياسية وبرز صراع أفراد الأسرة الحسينية على السلطة[4].

---

[1] سمير أبو حمدان، **خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية، الشركة العالمية للكتاب العالمي**، بيروت، د.ت، ص 19.

[2] محمد الهادي الشريف، **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ الى الاستقلال**، ط3، د.م، د.ت، ص 96.

[3] الصحراوي قمعون، **حركة الإصلاح والتحديث في تونس**، برقة للنشر والتوزيع، د.م، 2012، ص 13.

[4] أحمد ابن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، مج2، ج4، تح: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الدار العربية للكتاب، د.م، د.ت، ص 75

- الفوضى الداخلية التي تميزت بها الأوضاع السياسية والإدارية، حيث كان بايات تونس من أكبر المشجعين على الفوضى، بسبب سلوكهم السياسي والإداري[1].

ويصف أحمد أمين الحالة السياسية عند قدوم خير الدين، فيقول: "**وأما إدارة البلاد ففوضى وأي فوضى، الحاكم حاكم بأمره، وأحب الناس إليه من يجمع المال من حلاله وحرامه، ولا ضبط في دخل ولا خرج، والعدل والنظام متروك كان للمصادفات، فان تولى بعض الأمور عادل عدل، وكان العدل موقوتا بحياته، وقلما يكون، ونظام القضاء والجيش والإدارة والضرائب، وجباية المال وإنفاقه على النمط العتيق البالي، وكثير من الأمور تنفذ بالأوامر الشفوية لا مرجع لها، ولا يمكن الحساب عليها**"[2].

- تأزم الأوضاع السياسية بعد سيطرة الوزير الأكبر خزندار[3] على الدولة، والذي استطاع آن يكون الحاكم بأمره في البلاد (خاصة في عهد الباي محمد الصادق)، وضخامة مصاريف حاشية القصر[4]، بالإضافة الى زيادة الضرائب، كل هذه العوامل أدت الى نمو القطيعة بين البايلك والرعية، وكانت أساسا مباشرا لنقمة الأهالي على سياسة البايات[5].

ثانيا: الدولة العثمانية.

بحلول أواسط القرن التاسع عشر، كانت دول غرب أوربا قد خطت خطوات هامة في مجال الاختراع، والازدهار العمراني والتقدم في الصناعات الميكانيكية، مما جعلها تحلم باكتساح الأسواق للترويج لبضائعها، والبحث عن المواد الأولية لتموين مصانعها والسعي

---

[1] سمير أبو حمدان، **المرجع السابق**، ص 19.

[2] أحمد أمين، زعماء **الإصلاح في العصر الحديث**، **دار الكتاب العربي**، لبنان، (د.ت)، ص 150.

[3] **ينظر: الملحق رقم (02)**

[4] الشيباني بن بلغيث، **الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859-1882)**، تق: عبد الجليل التميمي، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات وكلية العلوم الإنسانية، صفاقص؟، 1995، ص 68.

[5] الصحراوي قمعون، **المرجع السابق**، ص 13.

الى بسط سلطانها السياسي والاقتصادي على ما يسمى العالم الثالث، ومنه العالم الإسلامي، وعلى الصعيد السياسي كانت العديد من الدول الأوربية قد أخذت مبادئ وأفكار الثورة الفرنسية، وبدأت تعتمدها كأسس في الحكم الى جانب ذلك، حفل عصر خير الدين بأحداث هامة منها ثورات 1848م في أوربا، وحرب القرم 1856م، وقيام الوحدتين الايطالية والألمانية، والتنافس بين الدول الأوربية على أملاك الدولة العثمانية، علاوة على تطورات الحركة القومية، وما أفرزته من حركات عصيان واستقلال خصوصا في بلاد البلقان، وظهور حركات مناهضة للدولة منها حركة الشبان العثمانيين؟.

وباتت مظاهر التغلغل الأجنبي في البلاد الإسلامية ومنها تونس واضحة، ولم تعد أوربا تنتظر أن يكتشفها المكتشفون المسلمون، ولكنها بنفسها بدأت تغزو الأراضي المسلمة وتفرض عليها علاقة جديدة قوية، في وقت كانت فيه الخلافة العثمانية تعاني أعراض الشيخوخة، لما أصابها من التحجر والاكتفاء بالعيش على مخلفات الماضي وعدم مسايرة ركب الحضارة، رغم محاولات الإصلاح المتكررة التي حاولت تونس القيام بها في عصره منذ عهد المشير الباشا أبي العباس احمد ابتداء من 12 مارس 1840، إذ كان وضعها لا يختلف عن بقية الولايات التي كانت تابعة للباب العالي في الميادين السياسية، الاجتماعية، والعمرانية، والتي تتجلى مظاهرها في دواليب الإدارة والحكم المطلق.

احتلال فرنسا للجزائر وأثره الكبير على تونس، حيث أرادت الدولة العثمانية أن تتخلص من الأسرة الحسينية في تونس لتكون قريبة من الجزائر لتتابع أوضاعها عن كثب، إلا أن فرنسا عارضت ذلك وبشدة لتدخل في مواجهة مع الدولة العثمانية في تونس[1]، حتى أنها

[1] محمود شاكر، **التاريخ الإسلامي في العهد العثماني**، ج7، ط4، المكتب الإسلامي، بيروت، 2000، ص ص 516-517.

عمدت الى استعمال القوة أحيانا، فقد كانت كلما اقلع الأسطول العثماني اتجاه تونس، كان الأسطول الفرنسي هو الأخر يقلع من طولون لمجابهته في ميناء حلق الوادي[1].

- محاولة بايات تونس الانفصال عن الدولة العثمانية، حتى أنهم اعتبروها ذات سلطة روحية فقط، حيث اكتفوا بذكر اسم السلطان في خطب الجمعة، وضرب اسمه على النقود التونسية، وفي حالة الحرب، فان بايات تونس يبعثون فيالق عسكرية للباب العالي كما حدث في حرب القرم[2].
- كما أن البايات كانوا يتوددون الى الدول الأوربية لكسب رضاها، ويعقدون مع قناصلها معاهدات، متجاهلين احتجاجات الدولة العثمانية، وخاصة تمكين هؤلاء من الحصول على امتيازات مختلفة[3].
- تشجيع فرنسا لبايات تونس على التمرد والاستقلال على الإدارة العثمانية بالرغم من وعي الباي بالخطر الذي يواجهه من طرف فرنسا، إلا أنه ظل تحت حماية الأساطيل الفرنسية خوفا من الدولة العثمانية أن تخلعه من منصبه، مثلما فعلت بباي طرابلس سنة 1835[4]، مما جعل بايات تونس يتبعون سياسة الجفاء اتجاه الباب العالي[5].

---

[1] **المرجع نفسه**، ص 517.

[2] **حرب القرم**: قامت بين روسيا والدولة العثمانية خلال الفترة الممتدة بين **نوفمبر 1853م**، إلى **سبتمبر 1856**، وقد ساندت فرنسا وبريطانيا الدولة العثمانية في هذه الحرب بداية من 1854. ينظر: محمد سمير طقوس، العثمانيون من قيام الدولة الى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، لبنان، 1995، ص 390 وما بعدها.

[3] الصحراوي قمعون، **المرجع السابق**، ص 13.

[4] محمد الهادي الشريف، **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ الى الاستقلال**، تع، محمد الشاوش–محمد عجينة، ط3، دار سراس، تونس، 1993، ص 96.

[5] عبد الجليل التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغاربي (1816–1871)**، ط1، الدار التونسية، 1972، ص20.

- كانت فرنسا تعامل البايات كحكام مستقلين عن الدولة العثمانية، وهذا ما ظهر جليا سنة 1846م، عندما سافر الباي أحمد الى فرنسا، واستقبل كحاكم مستقل[1]، مما أثار حفيظة السلطان العثماني،الذي رفض هذا التقارب الفرنسي التونسي، وأراد أن يكون الباي أكثر خضوعا للباب العالي من خلال الولاء الديني المطلق للسلطان، بالإضافة إلى الجباية السنوية للضرائب[2].

ومما سبق يمكن القول، أن تونس في أوائل القرن 19م كانت تتمتع على غرار الولايات العربية البعيدة عن السلطة المركزية بشبه استقلال، مكن الباي التونسي من أن يعالج شؤون البلاد حسب ما تمليه عليه مصالحه واعتباراته، بالإضافة إلى تصرفات وسوء تسيير الوزير مصطفى خزندار الذي تسبب في انجراف الايالة نحو الهاوية.

المبحث الثاني: البيئة الثقافية والاجتماعية

تظهر خريطة الانتشار السكاني في توزيع هؤلاء، بين الريف والمدينة والصحراء، وكان عددهم الإجمالي لا يتجاوز المليون، فسكان المدن يقتصرون في معاشهم على الحرف البسيطة والتجارة، أما سكان الريف فكانوا يعيشون في عزلة تامة ويستخدمون أدوات شبيهة لتلك المستخدمة في العصور الوسطى، بينما عاشت الفئة الثالثة على شكل بدو رحل[3].

[1] شاكر محمود باغي، **التاريخ العام الإسلامي الحديث والمعاصر**، ج2، ط1، دار المريخ للنشر، الرياض، 1993، ص 517.

[2] **المرجع نفسه**.

[3] سمير أبو حمدان، **المرجع السابق**، ص 16.

كان المجتمع التونسي عبارة عن مزيج من السكان، حيث تشكّل من البدو، البربر والأتراك، والمماليك، والزنوج، إضافة إلى اليهود، والأندلسيين، والأوربيين[1].

- ✓ **البدو:** فقد كانوا يعيشون ضمن قبائل متفرقة، غير أن هذه القبائل ضعفت كثيرا منذ هيمنة العثمانيين على تونس، وازداد ضعفهم أكثر بعد الاختراق الرأسمالي الأوربي للبلاد في القرن التاسع عشر، وما يميز هذه القبائل ليس فقط الإيمان بعلاقات القرابة الدموية، وإنما كذلك الإسلام والعروبة وهو الشعور بالانتماء الى رقعة جغرافية واحدة، والإيمان بوجود فضاء معين وهو البلاد التونسية[2].
- ✓ **الأتراك:** تجدهم في تونس العاصمة والمهدية، وهم الضباط وكبار الأعيان، وقد كانوا يحتقرون السكان المحليين ولا يتزوجون منهم إلا نادرا[3].
- ✓ **الزنوج:** هذه الفئة من المجتمع تجدها في الواحات، يعملون خدما لأسيادهم، أو مزارعين صغار، ينحدرون من العبيد الذين جلبوا من إفريقيا، وقد كانوا يباعون في الايالة بأسعار متفاوتة[4].
- ✓ **القبائل:** انقسمت قبائل تونس الى صفين، في الشمال والوسط، وهي الصف الحسيني نسبة الى الحسين بن علي، وينقسم هذا الصف إلى السواسي أولاد سعيد وأولاد عيار، أما الجنوب فقد كان مقسما أيضا، فنجد صف شداد، ويتألف من بنو زيد، الحمارية، وقليلا ما كانت هذه القبائل تتوحد أمام العدو[5].

---

[1] **المرجع نفسه** ، ص 16-17.

[2] محمد الهادي الشريف، **المرجع السابق**، ص 69.

[3] **المرجع نفسه** ، ص 69.

[4] محمد حسن جوهر، **تونس-شعوب العالم، دار المعارف، مصر**، 1981، ص ص 79-80.

[5] محمد الهادي الشريف، **المرجع السابق**، ص 79.

- ✓ **المماليك:** وهم الرقيق البيض الذين ولدوا في اليونان، جورجيا، والقوقاز وعيرها، تم إشراكهم في الأسطول في سن صغير، وفي القرن 19ماصبح معظمهم وزراء الباي من أصل مملوكي: (مصطفى خزندار، خير الدين باشا...)، حيث كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة في الدولة، وكانت الأراضي الأكثر خصوبة بين أيديهم[1].
- ✓ **اليهود:** عاش اليهود في تونس في أحياء متميزة تسمى الحارات، مارسوا التجارة خاصة تجارة المال (الذهب والفضة)، وينقسم اليهود الى طائفتين:

1/–طائفة اليهود التونسيون "**الأغلبية**" جاءوا الى البلاد منذ القديم.

2/–طائفة اليهود "**الأقلية**"وهم القادمون من أوربا، واغلبهم لديهم جنسية ايطالية[2].

- ✓ **الأندلسيون:** وهم المركسيون الذين طردوا من الأندلس على أثر حركة الاسترداد، التي قام بها الإسبان والبرتغاليين نحو سواحل شمال إفريقيا، اشتغل بعضهم في الفلاحة والبستنة حيث أشرفوا على غرس أشجار الكروم، الصناعة، والحرف، منها صناعة الشاشية وحرفة دباغة الجلود، فضلا عن الموسيقى[3].
- ✓ **الأوربيون:** هم تجار ومسيرون من فرنسا، ايطاليا، انجلترا، مالطة، وصقلية، دخلوا تونس واختلطوا بسكانها حتى أن منهم من كان يتقن اللغة العربية، وهناك صنف أخر وهم الغرابة، وهم الجزائريون الذين هاجروا بعد احتلال الجزائر سنة 1830م[4].

---

[1] علي المحجوبي، **ما يجب أن تعرف على انتصاب الحماية الفرنسية بتونس**، دار سراس، 1986، ص 20.

[2] محمد حسن جوهر، **المرجع السابق**، ص 57.

[3] **المرجع نفسه**، ص 80.

[4] محمد حسن جوهر، **المرجع السابق**، ص 85.

- شهدت الايالة حالة تأزم كان يعيشها السكان بسبب زيادة الضرائب، مما أدّى الى انفجار ثورات اجتماعية، بلغت ذروتها سنة **1864م**، مع ثورة بني غذاهم[1].
- بالإضافة الى انتشار المجاعة والأوبئة مثل الطاعون والكوليرا، مما تسبب في قتل الأهالي التونسيين[2]، ونجد ابن أبي الضياف يصف مرض الكوليرا فيقول: " ظهر في المملكة التونسية مرض وبائي يعبر عنه في ارض الحجاز بالريح الأصفر، أصله من أمراض الهند، وعبر عنه في بلادنا بالكوليرا، تلقى هذا الاسم من أطباء الفرنج، وصورته والعياذ بالله أن يصيب الإنسان إسهال وقيء، فيصفر له ويسود، ويموت في ساعات أو قليل من الأيام..."[3].
- كما عرفت تونس خلال هاته الفترة علاقات متوترة مع أوربا أثرت على عدة مستويات، خاصة منها الاجتماعية، وتصور لنا كتب الرحالة حالة البلاد سنة 1845 **(إن البلاد في حالة يرثى لها من التعاسة، بسبب التكالب الجنوني للباي على تجهيز جيش عظيم على النمط الفرنسي، وهناك قرى بأسرها عدت خالية من أهلها، وحقول تنتج التبغ أضحت جدباء منذ أن صار هذا المحصول يخضع لقانون الاحتكار)**[4]

يمكننا القول بان الحياة الاجتماعية للإيالة قد عرفت امتزاجا وتفاوتا طبقيا واضحا، مما أدى الى انتشار الفقر والمجاعة، وانفجار ثورات اجتماعية، بسبب سياسة البايات الظالمة من خلال إثقال كاهن السكان بالضرائب، ظننا منهم أن ذلك سيعوض حزينة

---

[1] محمد الهادي الشريف، **المرجع السابق**، ص ص 98-99.

[2] أحمد عبد السلام، **مواقف إصلاحية في تونس-قبل الحماية، ط1، الشركة التونسية للتوزيع**، د.م، 1987، ص 18.

[3] ابن أبي الضياف، **المصدر السابق**، ص 128.

[4] أحمد عبد السلام، **المرجع السابق**، ص 33.

الدولة، وسيوقف الناس عنه التفكير في التمرد، كما اقترنت المجاعة بالأوبئة والكوليرا وغيرها، حيث مات خمس التونسيين.

وإذا توقفنا بالعرض والتحليل عند الأوضاع الثقافية، فإننا نسجل بأنها كانت على قدر كبير من التخلف والانحطاط، حيث كانت الكتاتيب مقام المدارس والجامعات، ولم تكن برامجها تخرج عما كان مقرر منذ مئات السنين، وهو تلقين الطالب شيئا من القرآن والحديث، ومن النحو والصرف، بعيدا كل البعد عن المعارف والعلوم التي تدرس في أوربا[1].

كما وصفها أحمد أمين قائلا: "**إن الحياة العلمية فيها أشبه بما كان في مصر قبيل عهد محمد علي، كانت الكتاتيب البدائية منتشرة في القرى والمدن، غايتها تحفيظ القرآن وقلما يبلغون هذه الغاية، ويستطيع التلميذ بفضل مناهج الدراسة فيها أن يقضي عشر سنين أو أكثر من غير أن يحسن القراءة والكتابة، وكان على رأس هذه الكتاتيب جامع الزيتونة، وهو صورة مصغرة عن الأزهر في ذلك العهد، تقرأ فيه علوم الدين من تفسير وحديث وفقه وعقائد، وعلوم اللغة من نحو وصرف ومعاني وبيان، في كتب مقررة لها متون وحواشي...وجزء كبير من السكان بدو لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين ولا يصل إليهم شيء من علم إلا في بعض أماكن انشأ فيها الصوفية زوايا تعلم الناس شيئا من الدين، والجاليات الأجنبية من فرنسية وايطالية وانجليزية، فتخرج من هم اقدر على فهم الحياة** "[2].

[1] سمير أبو حمدان، **المرجع السابق**، ص 16.

[2] أحمد أمين، **المرجع السابق**، ص 148.

المبحث الثالث: الواقع الاقتصادي

بدأ التسرب الأوربي للبلاد التونسية خلال القرن 19م، فاضطربت التجارة الخارجية، بينما نشط التجار الأوربيون في تكديس الأرباح، مما انعكس على الاقتصاد التونسي بالسلب، بارتفاع نسبة الواردات على حساب الصادرات مما تسبب في عجز الميزان التجاري، وتدهورت قيمة الريال التونسي عمليا بنسبة الثلث في ديسمبر 1824[1].

ساهمت هذه التحولات الهيكلية في تدعيم مكانة التجار الأوربيين وأرباحهم على حساب التوازنات التجارية والمالية للبلاد[2]، فنشط رجال الأعمال الأوربيين مستفيدين من الامتيازات القنصلية، وتمكنوا من السيطرة على مسالك تصدير زيت الزيتون، الذي أصبح المورد الخارجي الأول للبلاد، وبذلك استكملوا هيمنتهم على التجارة الخارجية للبلاد توريدا وتصديرا[3].

ونتيجة عدم انفتاح المجتمع التونسي على مستجدات الزراعة الحديثة فقد تأثرت المواسم الزراعية، وقد اشتدت وطأة الأزمة على الفلاحين التونسيين، بعد أن شرع الأوربيون في تطعيم وتلقيح الأشجار المثمرة، بحيث أصبحت تدر غلالا وفيرة، غير أن هذه الغلال لم تبق في أيدي التونسيين الذين رفضوا استبدال أدواتهم البدائية بأدوات حديثة[4].

كما أن الحرف والصناعات التي كانت عماد الاقتصاد التونسي، فقد تلقت صفعة أليمة على يد الصناعة الأوربية المتطورة، فالتونسيون اشتهروا بصناعتهم بنوع من النسيج يطلق عليه اسم "الشاشية"، حيث كان مصدر الرزق الأساسي للكثير منهم، رغم

---

[1] خليفة الشاطر وآخرون، **تونس عبر التاريخ**، ج3، مكتبة الجامعة، تونس، 2005، ص 8.

[2] **المرجع نفسه**، ص 8

[3] سمير أبو حمدان، **المرجع السابق**، ص 10.

[4] **المرجع نفسه**، ص 19.

أن صناعته تتم بالآلات القديمة، فلما تقدمت الصناعة في أوربا وأصبحت تدار بالبخار، وتنتج إنتاجا كثيرا من الشاش وأرخص منه، وأصيبت الصناعة في تونس بضربة قاضية حتى لم يبق من مصانعها التي تبلغ الألف غير ثلاثين[1]. ويضيف احمد أمين قائلا: **[وكان مما أضعف التجارة سوء أدوات النقل وفساد الطرق، وهم ينقلون غلاتهم على الإبل والخيل والبغال ونوع من العربات البدائية، وتنقل القبائل البدوية غلاتها في القوافل، فان كان الشتاء وأمطرت السماء، تشعثت، وتعطلت الحركة]**[2].

- وازدياد نشاط الجاليات الأجنبية، وشرع البايات في استقدام الخبراء الأجانب ومنحهم عدة امتيازات للقيام بمشاريع مختلفة، ما جعل الفرنسيين يتدخلون لحماية مصالحهم، كما أن هذه الامتيازات تحد من سلطة الحكومة في تصريف الشؤون الداخلية وهي من أسباب تدهور الأحوال الاقتصادية[3].3كان أخطر شيء على الايالة هو اندفاع القوى الاقتصادية سنة 1815 خاصة بعدما وفرت الثورة الصناعية لها القوى الاقتصادية والعسكرية، لتبدأ أوربا حملتها على شمال إفريقيا ومنها تونس من اجل القضاء على الجهاد البحري[4].

بالإضافة الى لجوء الايالة الى الاستدانة من السوق العالمية بواسطة ارلنجي ذلك المغامر في أمور المالية وشريك الوزير الأول مصطفى خزندار، أكبر متسبب في ازدياد القروض التونسية، فسارع ذلك بالبايلك إلى هاوية الإفلاس، فوضعت أمواله

[1] سمير أبو حمدان، **المرجع السابق**، ص 19.

[2] أحمد أمين، **المرجع السابق**، ص 148.

[3] محمد الهادي الشريف، **المرجع السابق**، ص 141.

[4] **المرجع نفسه**، ص 92.

تحت وصاية اللجنة المالية العالمية التي تأسست سنة 1869، حيث قدرت الديون آنذاك بـت 125 مليون فرنك[1].

مما سبق ذكره يمكننا القول، بان المتضرر الوحيد من الأزمة الاقتصادية في تونس هو الشعب، نتيجة سوء تصرف البايات التونسيين ولجوئهم الى الاستدانة من الدول الأوربية مما أثقل كاهلهم بالضرائب.

[1] قدادرة شايب، **الحزب الدستوري التونسي وحزب الشعب الجزائري (1934-1954) دراسة مقارنة**، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006-2007، ص 31.

الفصل الثاني: خير الدين التونسي سيرة ومسار

المبحث الاول: المولد والنشأة

المبحث الثاني: تكوينه الثقافي

المبحث الثالث: وظائفه ومهامه

تمهيد:

عاشت الايالة التونسية أوضاعها مزرية في مختلف المجالات، هذا ما فتح الباب أمام محاولات التغيير والإصلاح التي اقبل عليها بعض السياسيين والمفكرين، من أبرزهم خير الدين التونسي الملقب بأبي النهضة التونسية.

وقد تناولنا في هذا الفصل دراسة شخصية خير الدين باشا، من خلال التطرق الى أهم محطات حياته، منذ ولادته وحتى وفاته وإعطاء لمحة عن ثقافته وتكوينه في مختلف جوانب حياته، والتعريف بالوثيقة التي حملت مشروعه الإصلاحي المتمثلة في **كتابه "أقوم المسالك**...."

- فمن هو خير الدين التونسي؟
- وما طبيعة البيئة التي نشأ فيها؟ وما هي أهم الوظائف والمهام التي تقلدها في البلاد التونسية؟
- ما أهمية كتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك خلال القرن التاسع عشر؟

المبحث الأول: المولد والنشأة

أولا: لمحة عن خير الدين التونسي

لما فتح خير الدين التونسي[1] عيناه وجد نفسه وحيدا بغير أم ولا أب ولا أسرة يحيا في كنفها، لكن وجد نفسه في أحد البيوت العريقة في الأستالنة، وهو بيت تحسين بك نقيب من إشراف المدينة، وعلى الرغم من انه كان عبدا مملوكا، إلا أن المعاملة الحسنة التي كان يلقاها في ذلك البيت أنسته الكثير من غربته ومعاناته[2].

لكن سرعان ما تغيرت الأمور الى عالم أخر، انتقل من تحسين بك، الى بيت أخر في تونس، حيث تم عرضه للبيع من رجل تونسي قدم الى الأستانة لهذا الغرض، وراح كما وصف احمد أمين الواقعة: "يفحصه كما يفحص السلع، ويصعد فيه النظر ويصوب فيه النظر من فوقه الى قدمه[3]"

---

[1] ينظر: **الملحق رقم (01)**

[2] خير الدين الزركلي، الاعلام، **المصدر السابق**، ص 224.

[3] أحمد أمين، **المرجع السابق**، ص 146.

اشتهر خير الدين التونسي بأبي النهضة التونسية الحديثة، وليس ذلك بكثير على هذا الرجل، كانت النهضة شغله الشاغل، فالرجل الذي بدأ حياته مملوكا في حياته، قد كان خير الدين في ذلك كله يصدر عن نظرة متطورة الى الواقع الذي كانت ترزخ تحته المجتمعات العربية الإسلامية العامة والمجتمع التونسي بوجه خاص، فالرجل شاهد بأم عينه مدى التطور الذي حققه الغرب بعد زيارات مختلفة الى عواصمه.

وقد تميز خير الدين التونسي عن غيره من رجالات النهضة في القرن 19 انه جمع بين شخصية المفكر ورجل السياسة، الأمر الذي جعله صاحب تجربة فريدة بين مختلف التجارب التي خاضها غيره من رجال الاصلاح في المنطقة العربية الإسلامية والمواقع السياسية التي تغلب فيها، مكنته من أن يحقق بعض أفكاره الإصلاحية حملها من كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك[1].

ثانيا: نشأة خير الدين التونسي:

ثمة صعوبة كبيرة في ترجمة وافية لخير الدين التونسي تحيط بجمل نشاطاته ومراحل حياته، وعلى الرغم من هذا المصطلح الشركسي الأصل، لا يقل أهمية عن سائر المصلحين في القرن 19، غير انه لم ينل مثلنا نالوا ولم توثق الكتابات عنه لبى مستوى ما حققه من انجازات وأفكار إصلاحية[2].

ولو أردنا اختصار مسيرة حياة هذا الرجل في أسطر قليلة، لما وجدنا أفضل من خير الزركلي نستعين به للتعريف بخير الدين التونسي.

ويذهب الزركلي الى أن خير الدين باشا وزير مؤرخ من رجال الاصلاح الإسلامي، قدم صغيرا الى تونس، وتقلد العديد من المناصب السامية، أخرها الوزارة[3]

اسمه أبو محمد خير الدين التونسي، شركسي الأصل ولد سنة **1237هـ/1825م**، أخذ في أحد الغارات أسيرا الى استانبول [4].كان والده حسن لفتيش قد قتل في احد المعارك ضد الروس[5].

---

[1] سمير أبو حمدان، **المرجع السابق**، ص ص 5-6.

[2] **المرجع نفسه**، ص 11.

[3] خير الدين الزركلي، الاعلام، **المصدر السابق**، ص 227.

[4] أبو القاسم سعد الله، **رائد التجديد الإسلامي ابن العنابي**، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 155.

[5] خير الدين الزركلي، **الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب المستعربة والمستشرقين**، ج2، ط3، ص 375

- بالرغم من اختلاف المصادر والمؤرخين في مولد ونشأة خير الدين، الزركلي في كتابه "**الأعلام**"، في جزءه الثاني أن مولده سنة **1225هـ/1810م**[1].
- لكن الأرجح هو التاريخ الذي اتفق عليه المؤرخين المختصين وهو 1237هـ/1825م.

حفظ القرآن وهو في صغره، ينتمي الى قبيلة الإباضة في بلاد الشراكسة الكائنة بالجنوب الشرقي من جبال القوقاز[2].

تربى خير الدين التونسي في قصر الباي في تونس (**قصر باردو**)، وتلقى مبادئ العلوم وشيئا من الفقه والتوحيد واخذ بعد ذلك يتوسع في العلوم الشرعية بمخالطة الأعمال، تعلم اللغة الفرنسية والعلوم العصرية حسب قول محمد بيرم: "**كان فصيحا في العربية، عارفا بالتركية والفرنساوية، شديد التوقير للشريعة والعلماء، محافظا على شعائر الدين....**"[3].

حيث ذكر انه بيع في سوق العبيد واشتراه أحد الأعيان التونسيين، لإهدائه عند رجوعه الى تونس للمشير احمد باي الاول، كان ذلك سنة 1837م، استعمله في خدمته وألحقه بمدرسة "باردو الحربية"، ثم بمدرسة صغار المماليك، حيث أتم دراسته فيها، فأتقن العلوم الدينية واللغات التركية والفارسية.

يقول خير الدين التونسي عن نفسه: "**بالرغم من يقيني أني شركسي الأصل، فإني لم احتفظ باي ذكرى دقيقة عن موطني ولا أهلي، لقد وقع اختطافي أثر عصر الحروب، أو عند بعض الهجرات في سن مبكر جدا من عائلتي**"[4].

وطنيته:

قيل عن خير الدين في وطنيته، برغم انه مملوك عثماني مذبذب التفكير، عمل مع بايات تونس ثم ابتعد عنهم ليخدم السلطان عبد الحميد الثاني، وذهب بعضهم الى انه عثماني التفكير والاتجاه، إذ كان يرى أن

---

[1] احمد أمين، **المرجع السابق**، ص 161.

[2] محمد محفوظ، **تراجم المؤلفين التونسيين**، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط1، ص 271

[3] محمد بيرم الخامس، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، ج1، ج2، دار صادر، بيروت-لبنان، ص 49.

[4] خير الدين التونسي، **كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال المماليك**، تح، منصف شوقي، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص 5

القضية التونسية جزء لا يتجزأ من قضية الإمبراطورية العثمانية، وانه لا نجاة لتونس إلا في ظل الإمبراطورية العثمانية، وهناك من ادعى أن خير الدين ممن مهدوا للاحتلال الفرنسي، لما مكن لإحدى الشركات الفرنسية من إقامة خط للسكة الحديدية يربط بين تونس المستقلة وقطر الجزائر المحتل، وأيضا بيعه للأملاك العقارية خاصة "**هنشير النفيضة**" للشركة الفرنسية بمرسيليا[1].

ويكفي الرد عن الزعم الثاني بأن نذكر قائله بأن هذه التهمة إن صحت ينبغي إذن أن نلصق بكل المصلحين التونسيين الذين كانوا يعتقدون نفس الاعتقاد، فابن أبي الضياف وبيرم الخامس ومحمد سنوسي وسالم حجاب....، عقدوا فصولا في كتبهم للدعوة في هذا الموقف وهو ضرورة الارتباط بالخلافة العثمانية، لرد أطماع الاستعمار الأوربي، فالجامعة الإسلامية التي أراد بعثها جمال الدين الأفغاني في الربع الأخير من القرن 19م، فرد خير الدين التونسي بنفسه على الزعم الثالث، مبينا أن منحه رخصة السكة الحديدية الرابطة بين تونس والجزائر لم يوافق عليها إلا بعد أن عجزت الشركات الانجليزية والايطالية بعهودها مع الملاحظة أن يشترط على كل هذه الشركات أن لا تتجاوز في بسط هذه السكة الحديدية الحدود التونسية، لا يمكن في أي حال من الأحوال الترخيص لها بتجاوزها إلا بعد إذن السلطان العثماني[2].

ثالثا: مميزاته:

تميز خير الدين بعدة خصائل عالية كرجل دولة، وتفانى في خدمة المصلحة العامة ووطنيته وحسن التنظيم وحب الاصلاح، وأيضا صرامته في التسيير والتمسك بمبدئه[3].

ويقول بيرم الخامس: "**عالي الهمة وقورا، حتى يخال له من لم يخالطه متكبرا، عفيفا عن الرشا، راسخ الطبع، ثابت الفكر، لا يتنازل عن رأيه، حازما في العلال**"[4]

ويقول احمد أمين: "**كانت فضائله التي تكون شخصيته، الجرأة في قول الحق، عمله من غير خوف، صلابته فيما يعتقده من غير انحناء، وقوة كواهله على حمل الأعباء من غير تبرم فرحمه الله**"[5].

---

[1] احمد أمين، **المرجع السابق**، ص 183.

[2] خير الدين التونسي، **المصدر السابق**، ص 43.

[3] محمد محفوظ، **المرجع السابق**، ص 54-55.

[4] احمد أمين، **المرجع السابق**، ص 197.

[5] علي المحجوبي، **النهضة الحديثة في القرن 19**، (لماذا فشلت بمصر وتونس، ونجحت باليابان؟)، دار سراس، تونس، 1999 ص 129.

هذه الخصال جعلت الكاردينال لافيجري، يذكره في تقرير رفعه الى وزارة الخارجية الفرنسية في شهر أفريل عام 1881م، حول الوضع في تونس، قصد تحذير بلاده من الشخصيات التونسية:"**أن خير الدين هو اشد المسلمين خطرا، وان مقدرته تجعله يهاب**"

ظلت كل أفكاره الإصلاحية راسخة في أوساط النخبة في العالم الإسلامي والعربي المحافظة عن القيم الإسلامية، وتغيير الواقع الى الأحسن بأفكاره المتنورة[1].

رابعا: وفاته

توفي خير الدين التونسي في الأستانة سنة **1307هـ/1889م**، عن عمر يناهز السبعين عاما ودفن في جامع أيوب، مخلفا تاريخا كثيرا وحافلا في الاصلاح ومكافحة الفساد[2].

المبحث الثاني: تكوينه وثقافته

أولا: تكوينه الثقافي والعلمي

كان خير الدين شديد التمسك بالدين والثقافة والعلم، وإعطاء أفكاره حول المعارف والاختراعات التي تمكن الأوربيون من الوصول اليها خلال القرن 11م، كان له اليد الطولى في ظهور موجة الإسلام، كان يمضي اغلب أوقاته في قراءة العلوم، وكان مجلسه محفوفا بالعلماء[3].

كان مهتما بالمكتبات وحبه للمطالعة، استفاد كثيرا من مكتبة القصر التي كانت تحتوي على أمهات الكتب والمخطوطات التي كان يجمعها احمد باي، حتى بلغت أكثر من ألفي مخطوط نادرة من المؤلفات في مختلف المجالات كالأدب، التاريخ، السياسة، والفلسفة...، فأصبح خير الدين منكبا على قراءة الكتب، حيث لا يكاد ينتهي من كتاب حتى يضع بين يديه كتابا أخر[4].

---

[1] الشيباني بن بلغيث، الجيش التونسي في عهد الصادق باي (1859-1882)، **المرجع السابق**، ص 70.

[2] أحمد أمين، **المرجع السابق**، ص 197.

[3] خير الدين التونسي، **المصدر السابق**، ص 5.

[4] سمير أبو حمدان، خير الدين التونسي، **المرجع السابق**، ص 26-27.

نستنتج أن خير الدين التونسي كان له الدافع الكبير في تطوير ذاته بالعلم والمعرفة، وتكوينه الثقافي الذي جعله من كبار المصلحين في تونس.

ثانيا: دراساته العلمية

ثم يتناولون علم الأخلاق، الأصول، والحساب، التاريخ، الجغرافيا، مبادئ الطبيعة، الاستدلال بالموجودات الأرضية، ومبادئ الفلاحة والصناعة، قانون حفظ الصحة وأصول المساحة، رسم الأرض والتحوير الخطي، الألحان، وبذلك سجل التعليم الابتدائي تطورا كبيرا في البلدان الشمالية وألمانيا وفرنسا وسويسرا[1].

أما الثانوي فيطلق عليه الطبقة المتوسطة، ينتقل الطالب بعد كسبه معارف العلوم، هو علم اللغات القديمة والحديثة وعلم البيان والفلسفة والرياضيات.

أما التعليم العالي فيسمى بالطبقة المنتهية، يحضر الطالب بالمكتبات العالية والمعاهد وبدراسة العلم الإلهي، وأحكام النوازل وغيرها[2].

نلتمس مدى إعجاب خير الدين التونسي بنظائم التعليم الأوربي، عندما اصدر مرسوما في تونس سنة 1875م، الذي ضبط بالتفصيل ترتيب التعليم بالجامع الأعظم، فقسمه الى ثلاث مراحل: عليا، وسطى، سفلى[3].

حاول خير الدين اخذ ما كان موجودا في الاتحاديات الأوربية وتطبيقها على البلاد الإسلامية (**تونس**)، وإحداثه لمدرسة تعليم العلوم العربية، وما يتبعها من العلوم العصرية[4]، تعليم الفنون والرياضة، اللغة

---

[1] روبيرت شنبرت، **تاريخ الحضارات العام**، مج6، إشراف، جوزيف موريس، تر، يوسف اسعد داغر فريد، منشورات عويدات، ط2، بيروت–لبنان، ص 279.

[2] خير الدين التونسي، **المصدر السابق**، ص 66.

[3] احمد عبد السلام، **مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية**، الشركة التونسية للتوزيع، 1986، ص 68.

[4] محمد بن خوجة، **صفحات من تاريخ تونس**، تق وتح، حمدان الساحلي الجيلالي بن الحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت–لبنان، 1986، ص 310.

التركية والفرنسية، كالحساب، الهندسة والجغرافيا[1]، والتي سميت بالمدرسة الصادقية وكانت مهمتها تكوين إطارات إدارية من خلال التدريس والتي كان يحتاج اليها الموظفون السامون في إدارة شؤون العامة[2].

ثالثا: اهتمامه بالمكتبات

إن خير الدين التونسي شديد الاهتمام بالمكتبات، وحب الاطلاع على الكتب وحاول تقليد الأوربيين بإنشاء المكاتب، فأقدم على إنشاء المكتبة الصادقية بجامع الزيتونة في تونس، حيث جعل فيها ترتيبا لم يسبق العمل به في البلاد، او في الخلافة العثمانية، إنما كانت بالنمط الأوربي، بان الكتاب لا يخرج من مكانه، ويمكن للمقبلين على العلم الاستفادة منه[3].

كان خير الدين التونسي يدعو الى الاصلاح في التعليم والثقافة التي تضمن نجاح الأمة، حاول تطبيقها في الايالة التونسية التي كانت **"حينذاك متهيئة لمجارات الدول الأوربية"**، وبالفعل نجح في هاته السياسة إلا انه تم فصله قبل إكمال مشروعه الإصلاحي الثقافي، وتوقفت مشاريعه لتعود تونس الى تخلفها[4].

المبحث الثالث: وظائفه ومهامه

أولا: تدرجه في الحكم

استطاع خير الدين لفت انتباه احمد باشا، فقرر إلحاقه بحاشيته دون أن يفصله عن سلك الجيش الى أن توفي[5]، في صفوفه وصبح أميرا ثم أمير الولاة الخيالة[6]، وبمزاولة العمل العسكري بدأت تظهر عليه علامات النجابة في التسيير وأضحى في حالة استياء شديد من حالة الانحطاط والانحلال التي آلت إليه البلاد، فانتقل مباشرة من القيادة العسكرية الى حاشية المشير ليستشار في المسائل السياسية، خاصة ما يتعلق بالعلاقات

[1] أبو عبد الله بن عثمان السنوسي، **مسامرات الطريف بحسن التعريف**، ج1، تع، الشادي، المؤسسة العربية، بيروت-لبنان، ص 101.

[2] احمد عبد السلام، **المرجع السابق**، ص 71.

[3] أبو عبد الله محمد بن عثمان السنوسي، **المصدر نفسه**، ص 102.

[4] محمد بن خوجة، صفحات من تاريخ تونس، **المصدر السابق**، ص 309.

[5] ***تدرج خير الدين في الرتب العسكرية التالية***: قائد كتيبة الخيالة بكباشي سنة 1849، الى قائم المقام سنة 1850. ينظر: خير الدين التونسي، **المصدر السابق**، ص 21.

[6] الصادق الزمرلي، **المرجع السابق**، ص 98.

الخارجية الأوربية[1]، وأول مهمة سياسية كلفه بها احمد باي سنة **1854** مهمة الدفاع عن الدولة التونسية في قضية محمود بن عياد (**1810–1880م**).

وعلى مدى 3 سنوات متواصلة قضاها خير الدين في باريس، مدافعا ومرافعا عن القضية التونسية، اكتسب بذلك خبرة واسعة في القوانين وفي سير المحاكم، والحق هزيمة نكراء بخصمه ابن عياد، حيث حكمت المحكمة بعد أن شكلت لجنة رئاسية برئاسة نابليون الثالث[2]. وهي لجنة النزاعات في وزارة الخارجية، برئاسة جوازف ماري كونت بوراليس (**1778–1858م**)، حيث نظر في الخلاف ووضع تقريرا، مفصلا حوله، وتم تدوين حيثيات هذه القضية في كراس ضخم احتوى على 18 مذكرة طويلة طويلة، للدفاع عن المصالح التونسية، حسبما خير الدين[3]، وكانت النتيجة بان تدفع الحكومة الفرنسية لابن عياد، وذلك بعد ان تحصل عن الجنسية الفرنسية، وأصبح مواطنا فرنسيا بأربعة ملايين قرش[4]، ولكن في نفس الوقت قضت بان يدفع لها 28 مليون قرش، واثر هذا النجاح الذي حققه خير الدين رقاه محمد باي الى رتبة وزير للبحر خلفا لمحمود الكاهية المتوفي[5]، حيث بقي في هذا المنصب مدة 7 سنوات (**1856–1862م**)، قام خلالها بأعمال إصلاحية هامة، منها توسيع ميناء حلق الوادي، وإنشاءه لمصنع بخاري لبناء السفن وإصلاحها، وقام بتوسيع الطرق وتوسيعها كما وضع قوانين لمجلس شورى منتخب[6].

ورتب هيئة خدمة الوزارة لتنظيم الوثائق الصادرة، وضبط جميع الأشغال اليومية في دفتر، وفي هذه النقطة يقول محمد بيرم الخامس انه كان أول من عرف ذلك في القطر، لأن الأمور كانت تجري سابقا دون ضبط، كما أقدم على وضع اتفاقيات مع الأوربيين حول شراء الأراضي والعقارات بالبلاد التونسية على أسس وقواعد تضبطهم في حدود الاستثمار لا الاستغلال[7]، وسمي بعد ذلك على عهد المشير صادق باي الكاهية لرئيس المجلس الأكبر ، وبعد أشهر أضحى رئيسا للمجلس الأكبر عند وفاة رئيسه **الوزير الأكبر، خزندار**[8]،

---

[1] محمد الفاضل عاشور، **تراجم الأعلام**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970، ص 48-49.

[2] أحمد ابن أبي الضياف، **المصدر السابق**، ص 27

[3] خير الدين التونسي، **مذكرات خير الدين باشا**، نح، تر، محمد العربي السنوسي، دار بيت الحكمة، تونس، 2008، ص 26.

[4] سمير أبو حمدان، **المرجع السابق**، ص 30.

[5] محمد محفوظ، **المرجع السابق**، ص 272.

[6] أحمد أمين، **المرجع السابق**، ص ص 169-170.

[7] محمد بيرم الخامس، **المصدر السابق**، ص ص 169-170.

[8] أبو عمران الشيخ وآخرون، **المرجع السابق**، ص 173.

الذين أرادوا أن يكون المجلس غطاءا للمشاريع والممارسات التي تتناقض مع مصلحة البلاد، على حين كان خير الدين يريده عكس ذلك تماما فقدم استقالته[1]، يقول خير الدين بهذا الصدد: "لقد حاولت أن أسير بالأمور في طريق العدالة والنزاهة والإخلاص، فذهبت كل مساعيا سدى، و "**لم أشأ أن اخدع وطني الذي تبناني، بتمسكي بالمناصب، ورأيت أن الباي وعلى الأخص وزيره العظيم الرّهيب الجاه مصطفى خزندار، لا يلجأ الى التشريعات الإصلاحية إلا لتبرير سياستها تبريرا قانونيا، فقدمت استقالتي سنة 1279هـ/1862، ورئاسة المجلس ووزارة الحربية وعدن الى حياتي الخاصة**"[2]

ثانيا: مهامه

خروج خير الدين التونسي من الحكم ساءت البلاد ودخلت في فوضى مالية وسياسية، كان سببها القروض التي طلبها المشير الصادق باي والتي قدرت بمليون فرنك، زيادة على ذلك أقدم الباي احمد على مضاعفة معلوم برفعه من 36 الى 72 ريالا سنة 1864، ليتدارك به الأزمة المالية التي وقعت فيها تونس[3]، مما أدى الى اندلاع شعبية قادها علي بن غذاهم وكادت تعصف بنظام الحاكم آنذاك، لولا أن الباي تمكن من القضاء عليها[4]، بعد أن أرسل السلطان عبد العزيز الى تونس حيدر أفندي مع بعض السفن الحربية، ومعه مليون فرنك نقدا، وفي نفس الوقت وصلت السفن الأوربية الى سواحل تونس، وتمكنت هاته القوات من السيطرة على الثورة واجبروا ابن غذاهم من دفع غرامة الحرب بقيمة مليون ريال[5].

ساءت الأحوال في تونس بعدها وابتليت البلاد بظهور مرض الكوليرا والحصبة وانتشار المجاعة، فاختار الباي خير الدين رئيسا للجنة المالية للبلاد، عمل خير الدين باشا في القضاء على الفساد في رأس هرم السلطة والمتمثل في مصطفى خزندار، وقد نجح في مهمته تلك، بذلك بقي في منصب الوزير الاول شاغرا بعد تنحيته، ليتم تنصيب خير الدين التونسية من جديد في 21 أكتوبر 1873[6].

---

[1] سمير أبو حمدان، **المرجع نفسه**، ص 36.

[2] فاضل بيات، **الدولة العثمانية في المجال العربي (دراسة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا مطلع العهد العثماني أواسط القرن 19)**، مركزات دراسات الوحدة العربية ط1، 2007، ص 590.

[3] حسن حسين عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، تق وتح، حمادي ساحلي، دار الجنوب، تونس، 2001، ص ص 143-144.

[4] فاضل البيات، **المرجع السابق**، ص 550.

[5] خير الدين التونسي، **مذكرات خير الدين باشا**، المصدر السابق، ص 25

[6] سمير أبو حمدان، **المرجع السابق**، ص 41.

قام خير الدين التونسي بعد تغييرات في هرم السلطة، كإنشاء منصب وزير لتوثيق الاتصالات بين الدولة التونسية والدول الأوربية، وشرع في تعديل الأحكام الجاري العمل بنها في البلاد، كما أحدث إدارة الأوقاف العامة بنظام محكم سنة 1874، وعهدها الى محمد بيرم الخامس المعروف بأفكاره الإصلاحية، كما أسس المدرسة الصادقية[1] سنة 1875، وأنشأ المكتبة الصادقية وسعى لإحياء الصناعات التقليدية وتطوير التجارة الوطنية[2].

نستطيع القول ان الوقت الذي تولى فيه خير الدين باشا الحكم كانت السلطة العثمانية تتخبط هي الأخرى في مشاكل عويصة بسبب تنافس الدول الأوربية على تقسيم أملاكها، واجه خير الدين باشا كل ما يتعلق بالدولة داخليا وخارجيا[3]، كما أقدم خير الدين على تصفية مخلفات الحرب، وإعادة النظام الى الولايات، وضبط الحدود الجديدة، كما اهتم هو الأخر بالقضية المصرية[4].

إن المجهودات التي بذلها خير الدين التونسي منحته نفوذ كرجل سياسي ليتولى الوزارة الكبرى، كان منافسوه بالمرصاد وضايقوه[5]، وحيكت له كل الدسائس، وفي الأخير جعلت خير الدين يقدم استقالته للمرة الثانية، ليتولى مصطفى بن إسماعيل منصبه[6]، حيث بقي في هذا المنصب مدة 7 سنوات (1856-1862م)، قام خلالها بأعمال إصلاحية هامة، منها توسيع ميناء حلق الوادي، وإنشاءه لمصنع بخاري لبناء السفن وإصلاحها، وقام بتوسيع الطرق وتوسيعها كما وضع قوانين لمجلس شورى منتخب. لذلك نجد عبد العزيز الثعالبي يقول في كتابه تونس الشهيدة: "ولكنه في النهاية فشل فشلا ذريعا أدى رحيله الى الأستانة"[7].

دعا السلطان عبد الحميد خير الدين للقدوم الى الأستانة فاستجاب خير الدين له، ليبدأ حياة سياسية جديدة في القسطنطينية بعد أن تطلع السلطان على كتابه "أقوم المسالك" وأعجب بأفكاره[8].

---

[1] ينظر: **الملحق رقم (04)**.

[2] حسن حسين عبد الوهاب، **المرجع السابق**، ص 145.

[3] سمير أبو حمدان، **المرجع السابق**، ص 59.

[4] الصادق الزمرلي، **المرجع السابق**، ص 54.

[5] عبد الكريم غلاب، **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي**، ج3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 91

[6] شوقي عطا الله الجمل، **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ليبيا**، تونس، الجزائر المغرب، ط1، مكتبة الانجلومصرية، ص 123.

[7] عبد العزيز الثعالبي، **تونس الشهيدة**، تر وتق، سامي لجندي، ط1، دار القدس، بيروت، ص6.

[8] ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة**، تر، كريم عزقول، دار النهار، بيروت، ص 112.

قبل أن يرحل خير الدين عرض أملاكه للبيع، التي وتمثلت في قصور أهداها إليه البايات المتعاقبون على حكم تونس مكافأة له جراء خدماته، وغابة من شجر الزيتون أهداها له الباي احمد، ومنزل كبير به مياه معدنية أهداها له الباي محمد[1].

كما كان موقف رجال الدين من خير الدين موقف عداء،وكما أن الظروف التي مر بها في تونس انتقلت الى الأستانة لتجاربه من جديد[2]، انتقد خير الدين الاصلاح على الطريقة التي عرفت بتركيا في عصر التنظيمات[3]، وكتب ما يلي: "مبدئيا يستحيل غرس مؤسسات بلد في بلد آخر، حيث يختلف طابع الناس وعاداتهم وثقافاتهم، وكذلك ظروفهم المناخية منذ أربعين سنة، حاولت العديد من المرات الحكومات التي توالت على الإمبراطورية العثمانية إعادة تنظيم المؤسسات السياسية والإدارية والقضائية للبلاد، غير أن جنودهم لم تقضي الى نتيجة، إلا إننا لم نسع بصراحة وحزم الى إصلاحات جذرية مناسبة للحاجات الحقيقية للبلاد ولتقليد أهلها في المحافظة على طريق المسطرة لتحقيق التغييرات الضرورية كلما دعت الحاجة مثلما يطبق القانون العام للبلاد المعني"[4].

نستخلص من هذه الفقرة، إن هذا البرنامج لخير الدين اقترح على عبد الحميد الثاني، لكنه رفض واعتزل بعدها السياسة.

ثالثا: كتابه أقوم المسالك

ألف خير الدين كتابه"أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"[5] في تونس عام **1862**، في فترة اعتزاله الوظائف العامة، إلا أنها لم تكن كذلك في الحقيقة، لأنه بقي منفصلا عن بلاط الباي الذي لم يتركه هو الأخر لأنه يعتبر إحدى الشخصيات التي تستشار في أمور الدولة ومشاكلها[6].

---

[1] احمد أمين، **المرجع السابق**، ص 192-193.

[2] محمد الحداد، **"لماذا يظل خير الدين معاصرا لنا"، في خير الدين التونسي**، ط2، المجتمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، ص 100.

[3] **المرجع نفسه**، ص 100.

[4] محمد محفوظ، **المرجع السابق**، ص 275-276.

[5] ينظر: **الملحق رقم (03)**.

[6] خير الدين التونسي، **المصدر السابق**، ص 44.

وكانت الأوضاع في زمن كتابة خير الدين لأفكاره الإصلاحية متردية في تونس، حيث سبق الإشارة اليها في الفصل الاول، لذلك كلفه الباي بمهمات خارجية أكسبته خبرة في السياسة الخارجية، فتم إرساله موفدا من قبله الى فرنسا وانجلترا وألمانيا والنمسا وايطاليا....[1]، وبعد اعتكافه في بستانه، ويصف ذلك محمد بيرم في قوله: **"وبقي الوزير خير الدين في بستانه مقبلا على شؤون نفسه، لا يختلط بالحكومة إلا نحو يومين في الشهر يتوجه الى الوالي للسلام عليه أو عندما يدعوه لأمر ما، كما وقع عند مقتل إسماعيل السني ورشيد، لان الوالي جمع بعد ذلك رجال حكومته وأعلمهم بالقتل..."**[2].

✓ **ظروف تأليفه:**

لقد كانت تونس تتخبط في أزمات أثناء انعزال خير الدين في كتابة أفكاره، والتي تتمثل في :

- غرقت البلاد في المديونة، وبذلك خضعت لوصاية اللجنة المالية العالمية في سنة **1869**، وكان ذلك بتدخل الدول الأوربية والضغط على الباي لحماية رعاياها ومصالحها في الايالة التونسية[3].
- قيام ثورة شعبية بقيادة علي بن غداهم بسبب الضرائب التي فرضتها الحكومة التونسية، التي كانت بمثابة تعجيز بالنسبة للأهالي والمزارعين الصغار، جعلت هذه الثورة نظام الباي على الحاوية، وكذريعة للدول الأوربية للتدخل في شؤون البلاد، إلا أنها أخمدت سنة **1866م**[4]، وما كانت البلاد تتخلص من هذه الثورة حتى انتشر بين الأهالي مرض الكوليرا والحمى التيفوسية، فانتشرت المجاعة والقحط وهلك الآلاف، وبذلك توقف الإنتاج الزراعي والفلاحي للبلاد.

---

[1] سمير أبو حمدان، **المرجع السابق**، ص 37-38

[2] محمد بيرم الخامس، **المصدر الخامس**، المصدر الخامس، ص 52.

[3] محمد الهادي الشريف، **المرجع السابق**، ص 97.

[4] خير الدين التونسي، **المصدر السابق**، ص 36.

- تدهور أحوال خزينة الدولة بانخفاض نسب مواردها الخارجية وارتفاع مصاريفها بالتبذير من خلال اقتناء الكماليات على حساب الأساسيات، والمغاربة بمشاريع مكلفة دون فائدة تذكر[1].

✓ **أسباب التأليف:**

- تأثر خير الدين بالحضارة الأوربية بعد سفره الاول الى فرنسا لمتابعة قضية ابن عياد، وبقي هناك مدة ثلاث سنوات[2]، تم تكليفه بعد استقالته الأولى عام **1862م**، من منصبه كوزير للبحرية، بسفارات خارجية زار فيها تسع دول أوربية، منها بالخصوص فرنسا حيث اغتنم الفرصة لدراسة الأسس الحضارية والثقافية للدول الأوربية، بالإضافة الى المؤسسات الاجتماعية والثقافية تابعة لها[3].
- محاولة خير الدين التصدي للدول الأوربية الطامعة في احتلال تونس من جهة، ومن جهة ثانية في مواجهة المعارضة الداخلية للإصلاح، وما ترتب عنها من مظاهر للتخلف والانحطاط في المجتمع التونسي، هذا ما جعله يكتب خلاصة أفكاره في هذا الكتاب.
- عمل خير الدين من خلال كتابه أقوم المسالك، أن يوضح العوامل التي تصلح من شأن الأمة الإسلامية بالمقابل مع ما تم في الدول الأوربية، حيث يقول: " **إن الباعث الأصلي على ذلك أمران آيلان لبى مقصد واحد، إحداهما إغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم، بالتماس ما يمكنهم من الرسائل الموصلة الى حسن حال الأمة الإسلامية، وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان، وتمهيد طرق الثورة من الزراعة والتجارة، والترويج لسائر الصناعات، ونفي أسباب البطالة**"[4].
- تأثر خير الدين بأفكار المصلحين الذين عاصرهم، منهم محمد بن عبد الوهاب، الذي اثر عليه في دراسته وتكوينه، وإدراك مشكلات المسلمين وقضايا العالم الإسلامي[5]، وكذا مطالعته للمؤلفات السياسية المترجمة في مصر عن الفرنسية من إشراف رفاعة الطهطاوي والموجودة في مكتبة المدرسة

---

[1] خليفة الشاطر، **المرجع السابق**، ص 273.

[2] جلال يحي، **المرجع السابق**، ص 224.

[3] محمد محفوظ، **المرجع السابق**، ص 273.

[4] نقولا زيادة، **أعلام عرب محدثون من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الاصلية للنشر والتوزيع**، بيروت، 1994، ص 79.

[5] عمر عبد العزيز عمر، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2007، ص 94.

الحربية بباردو، ومؤلفات خاصة[1] بتاريخ المجتمع الإسلامي ومؤلفات خاصة بتاريخ الغرب، وكذا معرفة فلسفة الدولة عند ابن خلدون ومناقشاته مع أساتذة المدرسة الحربية، واتصالاته مع المصلحين العثمانيين والمصلحين التونسيين أمثال حسين ورستم واحمد ابن أبي الضياف وسالم بوحاجب وبيرم الخامس حول الإصلاحات الضرورية للبلدان الإسلامية[2].

- تأثره أيضا بالثورة الفرنسيثة وبشعاراتها، حيث أصبح خير الدين يحاول أن يجد في الأفكار الأوربية الجديدة مرجعية لها في التاريخ الإسلامي[3].
- ومن الأسباب الداعية أيضا لقيام خير الدين بتأليف كتابه، هو معارضته للباي وخزندار في تطبيق السياسة الاقتصادية التي أدت الى الأزمة المالية، ويصف لنا هذا الوضع محمد بيرم الخامس بقوله: "لو رأيت ما عليه القرار لملئت رعبا ولوليت منه الفرار من ذئاب تغتال وثعالب تحتال، مجتهدة في قلب الرجال، وتشتيت الرجال، وثعبان ثاغر فاه، لا بتلاع الاموال، فيالها من حال يرثى لها من رام النزال."[4].

- **أهمية الكتاب:**

يعتبر كتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، من أهم الكتب التي رسمت أوضاع العالم في القرن 19م، حيث تطرق الى المسائل الجوهرية التي يهدف الى تغيير الأوضاع (**الرجل المريض**)، وفق برنامج إصلاحي شامل، حيث ساهم هذا الكتاب بشكل كبير في إيقاظ الشعور بالتجديد والتحديث داخل المجتمعات العربية والإسلامية، حيث لقي رواجا كبيرا وترحيبا على الصعيد العربي والإسلامي، ومن الذين أشادوا به المفكر المصري رفاعة الطهطاوي، والمفكر السوري عبد الرحمان الكواكبي، وغيرهم من عمالقة الإصلاح في القرن 19م.

يعد ظهور هذا الكتاب حدث هام في تاريخ تونس، فهو يزودنا بآراء المثقفين في الفترة التي تبعت الإصلاحات، **وثورة 1864**، ولم تكن المقدمة هي وحدها التي تطلعنا على تلك الآراء، بل

---

[1] محمد محفوظ، **المرجع السابق**، ص 273.

[2] سمير أبو حمدان، **المرجع السابق**، ص 114

[3] **المرجع نفسه**، ص 116.

[4] محمد بيرم الخامس، **المصدر السابق**، ص 36.

نجدها أيضا في الفصول التي وصفت فيها الأقطار مختلفة، مثل الدولة العثمانية، ايطاليا، فرنسا، بريطانيا.

لذلك حضي خير الدين التونسي بمكانة مرموقة بين المؤرخين المشارقة الذين اطلعوا على مقدمة كتابه، ومنهم بعض المصلحين الذين لم يغفلوا عن ذكره وعن الترجمة له في الإصلاح.

نذكر مثلا كتاب "الإعلام" للزركلي، وترجم له أحمد أمين في كتابه "زعماء الإصلاح"، وهنا يؤكد أهمية المؤلف والدور الذي لعبه في مجال الإصلاح، وبث روح التجديد والتحديث في العلم الإسلامي.

وفي الأخير نستنتج أن خير الدين التونسي عاش عبدا مملوكا يتيم الأبوين، بيع في سوق العبيد، لكنه بذكائه وفطنته، واستطاع الدخول وتولي مناصب الحكومة في البلاد التونسية، وتوليه العديد من المناصب الراقية، اضطر الى تقديم استقالته بسبب الدسائس والمؤامرات ضده، ليرحل الى استانبول ويتحمل مسؤوليات أخرى في الدولة العثمانية، وقد نالت مقدمة كتابه إعجابا كبيرا وإقبالا لم ينلها أي كتاب تونسي أخر، مما يدل على أهمية الأفكار التي جاء بها.

الفصل الثالث: أفكاره الإصلاحية مجالاته –مرتكزاته

المبحث الاول: برنامجه في الإصلاح السياسي والاقتصادي والعسكري

المبحث الثاني: اسهاماته في اصلاح الدولة العثمانية

المبحث الثالث: صدى تجربة خير الدين التونسي

تمهيد:

عاشت الايالة التونسي في القرن التاسع عشر أوضاعا جد مزرية في مختلف المجالات، هذا ما فتح الباب أمام محاولات التغيير والإصلاح التي اقبل عليها بعض السياسيين والمفكرين، أبرزهم خير الدين التونسي الملقب بأبوة النهضة التونسية، وهو احد رموز الاصلاح، الذي جمع بين شخصية الرجل المفكر ورجل السياسة في آن واحد، ما جعله صاحب تجربة فريدة في العالم العربي والعالم الإسلامي الأمر الذي جعل خير الدين يسعى الى تطبيق برنامجه الإصلاحي في البلاد التونسية، ومحاولة الاصلاح هذه لم تكن عشوائية، بل كانت على الفهم والدراسة والتمعن، وهي الأفكار الإصلاحية التي تضمنتها مقدمة كتابه "**أقوم المسالك**"، التي حاول تجسيدها أثناء فترة توليه رئاسة الوزراء، ومن . هنا نطرح مجموعة من التساؤلات:

- فيما تمثلت جهود خير الدين الإصلاحية في الميدان السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي؟ وهذا ما نحاول التطرق إليه في هذا الفصل.

المبحث الأول: برنامجه الإصلاحي السياسي الاقتصادي العسكري

أولا: لمحة عن الحركة الاصلاحية

ظهرت في تونس ثلة من المفكرين والمصلحين في القرن 19، كانت تنادي الى ضرورة الاصلاح، ومن بينهم خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية الذي عرفه بكتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، احمد ابن أبي الضياف وكتابه "**إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**"، محمد السنوسي وكتابه "الاستطلاعات الباريسية"، وعرف أيضا "بالرحلات الحجازية"، بالإضافة الى ذلك محمد بيرم الخامس "صفوة الاعتبار بمستودع الأمطار والأقدار"، وغيرهم من المثقفين أمثال الجنرال رستم ومحمود قابادو الذين زاروا الدول الغربية وأعجبوا بالتقدم الحضاري والثقافي فيها، وأدركوا الفرق الشاسع بينها وبين البلدان العربية عامة وتونس خاصة، وهذا ما دفعهم الى تدوين انطباعاتهم وكان لهم هدف مشترك ألا وهو القيام بتحسين وإصلاح الأوضاع في تونس للوصول الى التطور والازدهار الذي بلغته أوربا في شتى المجالات.

- **تعريف الاصلاح:**

أ- لغة:

لفظة مشتقة من كلمة صلح، يصلح صلاحا، وصلوحا، والصلاح، والإصلاح، نقيض الإفساد، إي أقامه.

ب- إصطلاحا:

هو إحداث تغيير في الشكل أو الحالة، أو إزالة خلل أو إدخال عمل أفضل، مما يجعل معنى التغيير في شكل السلطة ووضع المجتمع وإصلاح ما فيه من فساد، وتعود أصول حركة الاصلاح الى تعاليم الاسلام نفسه، حيث يرى الكثير من المفكرين أن حركة الاصلاح الحديثة جاءت كرد فعل على الغرب، فلما رأى المسلمون ما حال بهم من نكبات بسبب تقدم أوربا، عليهم بعلومها أو أنظمتها، فاقتنعوا انه لا بد من تقليد الغرب وأنظمتهم[1].

كما يرتبط الاصلاح بمصطلح التجديد، ويمكن القول بان الحاجة للإصلاح أو التجديد تستدعيها أسباب واجتماعية وسياسية، فإذا كان الاصلاح هو العودة بتطبيق أحكام نافذة على أوجه الحياة، فان التجديد زيادة عن ذلك لفتح باب الاجتهاد لمواجهة المستجدات الطارئة في حياة المجتمع[2].

- **خصائص الحركة الإصلاحية في تونس**

- تميزت الحركة الإصلاحية باتحاد السيف والقلم، من اجل خوض معركة الاصلاح وخاصة الجانب السياسي منه كمقدمة في رواية له، لكن سرعان ما فشل هذا الاتحاد في قهر خصومه من محافظين أو عملاء لمصالح أجنبية ومناورين أوربيين، لان يمهدوا للاستيلاء على البلاد[3].
- لم يقف وراء الاصلاح للإصلاح فحسب، بل انخرطوا في العمل السياسي لتطبيق أحكامهم وبرز ذلك في حياة خير الدين التونسي.

---

[1] عبد الكريم بوصفصاف، **الفكر العربي الحديث والمعاصر**-محمد عبده، عبد الحميد بن باديس نموذجا-، ج1، ط1، دار مداد، قسنطينة، 2009، ص 271.

[2] فريد حاجي، **الاصلاح واليته عند ابن العنابي وخير الدين التونسي خلال القرن التاسع عشر**، دار كرم، د.ت، ص ص 113-114.

[3] محمد حداد، **المرجع السابق**، ص 97.

- إن رموز الفساد ومناهضة مشروع الاصلاح، خاصة مصطفى خزندار، ومصطفى بن إسماعيل، لم يبتعدوا عن مراكز القرار الأولى، مما جعل قدراتهم في الإضرار والإفساد لسياسة خير الدين وأنصاره لحد ما في البداية حتى الوصول الى القضاء عليها في النهاية[1].
- لم يشكل التيار الإصلاحي التونسي خلال القرن التاسع عشر حركة سياسية وفكرية مستقلة محددة الهدف بل مكون من شخصيات مترابطة ومتضامنة نسبيا، دون أن تكون في مستوى هيكله تنسيق عملي وتنظيمي وسياسي، يوفر لها نجاعة ميدانية أو حصانة أمنية[2].
- يعتبر خير الدين مصلحا سياسيا واجتماعيا مثله مثل مدحت باشا، غير أن الفرق بينهما كالفرق بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، فا عجز عن الاصلاح ثار ودبر الانقلاب، وخير الدين يصلح وان عجز عن الاصلاح رفع يديه الى السماء وقال: "اللهم لني قد بلغت"[3].
- كان خير الدين رجل دولة يحمل مشروع إصلاحي استلهمه من زيارته الى فرنسا، مستندا الى أرضية فكرية، لكن ممارسة برنامجه السياسي خلال الفترة التي قضاها في الوزارة، تخللها أزمات وتناقضات وظهور أطراف معادية له شخصيا والمصالح الوطنية عامة، جعلته غير قادر على تنفيذ ما رسمه من أهداف لتطبيق أفكاره الإصلاحية[4]، كما تزعم خير الدين التيار الإصلاحي وأصبح من رواد الحركة الإصلاحية في تونس، إلا أن الاصلاح قد تعثر في بداية عهد محمد باي انتشار الفساد وتواطؤ بعض الأطراف مع الدول الأوربية الاستعمارية[5].

ومما سبق نستنتج أن خير الدين أصبح قطب على الحياة السياسية والفكرية في القرن 19، مثله مثل احمد ابن العنابي وغيرهم.

---

[1] زهير الذوادي، **الاستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية في تونس**، ط1، الأطلعية للنشر، 2006، ص 7.

[2] زهير الذوادي، **المرجع السابق**، ص 127.

[3] محمد الحداد، **المرجع السابق**، ص ص 91-92.

[4] زهير الذوادي، **المرجع السابق**، ص 133.

[5] زهير الذوادي، **المرجع نفسه**، ص 131.

أولا: الإصلاحات السياسية

جاء خير الدين التونسي للوزارة الكبرى، والبلاد غارقة في الفوضى السياسية والمالية، وفي الوقت التي كانت تحتاج فيه الى شخص مصبح يخرجها من الأوضاع التي وصلت اليها، لكن مجيئه كان متأخرا، حيث قبل بمنصب الوزير الأكبر سنة **1873م**، أي بعد مصطفى خزندار الذي تلاعب بأموال الدولة واستغل السلطة لصالحه، وبالتالي كانت الظروف التي تولى فيها خير الدين هذا المنصب صعبة جدا، ورغم قصر مدة توليه الوزارة، إلا أنه استطاع أن يكون بالكثير من الأعمال الإصلاحية[1].

تطرق المصلح خير الدين باشا في كتابه "**أقوم المسالك**"، عن أسباب تقد الشعوب الأوربية وتطورها، وما أتت إليه الأمة الإسلامية من تأخر وجمود، داعيا الى التأمل طويلا في أسباب تقدم الأمم وتأخرها مستندا في ذلك لما أمكن تصفحه من التواريخ الإسلامية والأجنبية، مع ما حرّره الكتاب من الفريقين فيما كانت عليه الأمة الإسلامية، وما آلت إليه وما سيئول أمرها في المستقبل[2].

حيث تناول موضوع الاصلاح السياسي انطلاقا من الواقع الذي يعيش فيه، حيث الفساد وانعدام النظام، وكانت دعاوي المصلحين عموما في مجال الاصلاح السياسي لنظام الحكم في جزء عظيم من مقتضياته، وقد تأثر خير الدين بأفكار المصلحين الذين عاصرهم، ومنهم محمد بن عبد الوهاب الذي اثر عليه في دراسته وتكوينه الفكري، وإدراك مشكلات المسلمين وقضايا العالم الإسلامي[3].

لكن خير الدين بقدر ما تشبع بقيم ومبادئ وانجازات الحضارة الغربية أثناء إقامته بفرنسا مطلع خمسينات القرن 19م[4]، بقدر ما فهم عمق وخطورة تنامي الميل الاستعماري الفرنسي بصفة عامة وأطماعه في تونس على وجه الخصوص، لذلك نجد سياسته تتمثل في البحث عن سبيل في التخلص من النفوذ الاستعماري[5].

---

[1] الشيباني بن لغيث، **المرجع السابق**، ص 70.

[2] الصحراوي قمعون، **المرجع السابق**، ص 20-21.

[3] خير الدين التونسي، **المصدر السابق**، ص 142.

[4] زهير الذوادي، **الاستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية التونسية**، ط1، الأطلعية للنشر، 2006، ص 137.

[5] الصحراوي قمعون، **المرجع السابق**، ص 21.

وذلك بإعادة ربط تونس بالدولة العثمانية لتفادي سقوطها في أيدي الاستعمار الأوربي، وخير الدين لا يدعو الى نظام معين من أنظمة الحكم، ولا يصرح بضرورة أتباع نظام معين، وإنما الغالب على تفكيره وعلى تفكير معاصريه من المصلحين، كأحمد ابن أبي الضياف مثلا، كتوفير العدل والحرية اللذان هما أصلان في تشريعاتنا[1]، فخير الدين يرى انه لا سبيل الى القوة والازدهار إلا بالعودة الى النظام الذي يكون قوامه التأسيس على دعامتي الحرية والعدل، ومن هذا المنطلق يوجهنا الى الأسس التي يبنى عليها الحكم القوي، ففي رأيه إن إحراز أسباب القوة لا يكفي فيه تحصيل الخبرة الصناعية والفنية، لا بد من تغيير جوهري في النظم السياسية والاجتماعية، لان هذه النظم هي السر فيما تشهده أوربا من تطور[2].

نلاحظ أن خير الدين عندما يدعو الى الاقتباس من الحضارة الأوربية، فهو لا يدعو في نفس الوقت الى التقليد الأعمى، حيث نبه الى من جنحوا الى هذا الاتجاه، عندما قلدوا الغرب تقليدا أعمى، في محاولة للنهوض بالخلافة العثمانية، رد عليهم بقوله: "مبدئيا من المحال نقل مؤسسات من بلد الى بلد أخر، حيث تكون فيه طبائع البشر متغايرة، وكذا أخلاقهم وتربيتهم وظروف مناخهم، وفشل هؤلاء المقلدون، بسبب كونهم لم يجنحوا الى اصلاحات جوهرية تتلاءم والحاجات الحقيقية البلاد وطبائع سكانها "[3].

وأكد هذا الأمر أيضا في مذكراته لقولة: "**نصف الحلول دون الأسس، وقلدنا أوربا في بعض المؤسسات المعزولة لأننا لاحظنا النتائج الطيبة وفرتها في البلدان التي ظهرت فيها متناسين أن مجمل القوانين لبلد معين هي التي تضمنت الفوائد من كل إجراء خاص**"[4].

كما بين لنا أن الانفراد بالسلطة والاستبداد بالرأي لا يؤديان الى عواقب وخيمة[5]، وهو ما جعله يؤكد أن العمل بالرأي الواحد مذموم، ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمال والمعارف مستدلا بالكثير من المواقف والتحاليل بالعلامة ابن خلدون فيما يتعلق بضرورة المشورة في الحكم وتفادي الظلم المؤدي الى خراب العمران،

[1] خير الدين، **المصدر نفسه**، ص 57.

[2] زهير الذوادي، **الاستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية التونسية**، المرجع السابق، ص 139.

[3] خير الدين التونسي، **المصدر السابق**، ص 51.

[4] خير الدين التونسي، **المصدر السابق**، ص 51.

[5] فريد حاجي، **المرجع السابق**، ص 150.

شانه في ذلك شان ابن أبي الضياف وسائر المصلحين التونسيين في القرن 19، الذين تحدثوا عن مساوئ الحكم المطلق وضرورة الحكم المقيد بالقانون[1].

لذلك يمكن تلخيص مذهب خير الدين السياسي في هذه الجملة، وجب علينا أن نجزم بان مشاركة اهل الحل والعقد للملوك في كليات السياسة مع جعل المسؤولية في إدارة المملكة على الوزراء المباشرين لها بمقتضى القوانين المضبوطة، مراعيا فيها حال المملكة أجلب لخيرها وأحفظ لهم.

وقد فهم خير الدين ذلك مما جعله يتبع نهجا سياسيا حذرا، فأبقى على التوازن بين الدول الأوربية[2].

بالإضافة الى الامتيازات والمعاهدات غير المتكافئة التي منحت للقوى الأوربية، جعلت اقتصاد البلاد محل احتكار القوى، مما أدى ارتفاع الديون بسبب عجز الدولة في تسديد الاموال الطائلة التي اقترضت من الدول الأوربية، مما أدى الى وضع المالية التونسية تحت نظام الرقابة والتصرف الأوربي، ومن الطبيعي أن تعرقل هذه التدخلات التي أضرت بالاقتصاد ومست السيادة وتجميد الإصلاحات[3].

لم ينجز خير الدين خلال الفترة التي قضاها على رأس الوزارة (**1873-1877م**)، برنامجا نابعا بشكل كلي من المفاهيم والنظريات التي قدمها في كتابه "أقوم المسالك"، حيث حاول انجاز ما يمكن انجازه في ظل ما تعرفه البلاد من الفوضى السياسية والمالية، صعبت من مهامه، وجعله غير قادر على تنفيذ ما رسمه من أهداف إصلاحية، وباستقالة خير الدين انتهت كل محاولاته الإصلاحية الهادفة الى إنقاذ الايالة من خطر السقوط تحت النفوذ الاستعماري[4]، حيث لم يكن باستطاعته إصلاح أوضاع فسدت وتدهورت منه فترة طويلة، في فترة حكم لا تتجاوز أربعة سنوات قضاها في سبيل توفير الوسائل اللازمة من اجل تحقيق إصلاحاته.

---

[1] الصحراوي، **المرجع السابق**، 21.

[2] زهير الذوادي، **المرجع السابق**، ص 137.

[3] محمد الحداد، **المرجع السابق**، ص 98.

[4] احمد عبد السلام، **المرجع السابق**، ص 8-7.

ثانيا: الإصلاحات الاقتصادية

شهدت فترة حكم خير الدين التونسي، تأزم الأوضاع الاقتصادية، حيث كان اقتصاد تونس اقتصاد تقليدي، يقوم على الزراعة وبعض الحرف التقليدية، نتيجة التغلغل الأوربي داخل تونس[1]. والتحكم في الأسواق وبالتالي السيطرة على الاقتصاد باستعمالهم أساليب حديثة في الزراعة والصناعة والتجارة، مما أضعف المنتوج التونسي.

للنهوض بالفلاحة أصدر خير الدين قانون الخمّاسة الذي حدد حقوق وواجبات الخماس، ونظم علاقته مع الفلاح[2]، حيث أصدر تعليمات الى جميع الهيئات والسلطات بإعطاء أهمية كبيرة لتنمية النشاط وترجمة هذه التعليمات ميدانيا بالقيام في مختلف المناطق بتحديد مساحة الأرض المزروعة، وأفادت التقارير عن أسباب توسع وتقلص المساحات الزراعية، ويظهر من ذلك أن خير الدين التونسي كان يهدف الى تبنى نظام إحصائي لعملية الإنتاج، ينطلق من لوضع التقديرات الجبائية للدولة، وتحديد حجم المساعدات التي يمكن أن تقدم للفلاحين[3].

وهكذا بينما أدت سياسة مصطفى خزندار الى انخفاض مساحة الأراضي المزروعة من **150 ألف هكتار** إلى **60 ألف هكتار**، أدت سياسة خير الدين الى اتساعها إذ تجاوزت **700 ألف هكتار** سنة **1877م** عند تخليه عن الحكم.

ومن جهة أخرى نلاحظ انه قد اهتم بالقطاع الصناعي من خلال إصداره قانون يضبط حقوق وواجبات العمال والصناعيين وتنظيم العلاقة بينهما[4]، كما عمل على تنظيم العلاقة بين الحرفيين وأرباب الهيئات التي تنظم نشاطهم، وذلك من اجل إحياء الصناعات التقليدية مثل صناعة الشاشية وحرفة النقش بمقاييس معينة بعد قيامه بضبط الأوزان والمكاييل وإبدال العملة النقدية ناقصة في الوزن بعملة الذب الكاملة[5].

---

[1] عبد القادر دوحة، **الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية لخير الدين التونسي في منتصف القرن 19 وعلاقاتها بالحضارة الغربية**، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع11، ديسمبر 2016، ص 204.

[2] زهير الذوادي، **المرجع السابق**، ص 153.

[3] زهير الذوادي، **المرجع نفسه**، ص 153.

[4] حبيب حسن اللولب، **المرجع السابق**، ص 53.

[5] حبيب حسن اللولب، **المرجع السابق**، ص 53.

أما القطاع التجاري، فقام بخفض الإرادات الجمركية بهدف تشجيع الإنتاج والتصدير، فانتعش الاقتصاد وازدادت المداخيل[1].

وشجع الفلاحين على محاربة الغش في المنتوجات لتحسين نوعية وكمية الإنتاج التونسي حتى يستطيع الحد رمن المنتوجات الأوربية التي غزت تونس في تلك الفترة.

لذلك بدأ خير الدين بتنظيم التجارة الداخلية، بمنع بيع السلع خارج الأسواق والمحلات المخصصة لها، يهدف لخلق نوع من التنافسية مع السلع الخارجية، بالإضافة الى رفع الرسوم الجمركية المفروضة على السلع الأجنبية من 3% الى 8% وخفضها بالنسبة للصادرات[2]

اعتبر خير الدين العصب الرئيسي الذي يقوم عليه عصب اقتصاد البلاد، وهو النظام المالي الذي يرتكز على عنصرين أساسيين:

/-**العنصر الأول**: يتعلق بتحصيل الموارد المالية الضرورية.

2/-العنصر الثاني: يتعلق بكيفية استغلال وتوزيع تلك الموارد المالية على مختلف القطاعات في الدولة بما تضمن تفعيلها وزيادة إنتاجها، حيث أن الموارد المالية ترتكز أساسا على الجباية، مما دفعه على إدخال تعديلات على طرق تحصيلها، لذلك أبطل ما هو غير مناسب[3]، حيث يقول بيرم الخامس: "**وأما ما يتعلق بتحسين الإدارة المالية والحكيمة في القطر، فاحدث أمورا عديدة نافعة، فمنها انه أبطل المحابي التي اختلفت كميتها وكيفيتها**"، كما أوقف خير الدين المحلات السنوية التي كانت تقوم بجمع الضرائب بالقوة، محاولا تغليب المصلحة العامة، من خلال احتكاكه بالأوربيين[4].

ثالثا: الإصلاحات الاجتماعية

تبرز ملامح خير الدين الاجتماعية في عنصرين هامين:

---

[1] حبيب حسن اللولب، **المرجع نفسه**، ص 53.

[2] عبد القادر دوحة، **المرجع السابق**، ص 207-208.

[3] عبد القادر دوحة، **المرجع نفسه**، ص (من 207الى 211).

[4] محمد بيرم الخامس، **المصدر الخامس**، ص 507.

- العنصر الاول في القضاء باعتباره ركيزة من الركائز الاجتماعية لأي مجتمع بشري، فيما يتمثل العنصر الثاني في نظام الوقف الذي اعتبره عنصرا مكملا للعنصر الأول، باعتباره يهدف الى نفس الغرض، ولذلك حاول خير الدين أن ينظمه بإدخال بعض الأنماط الأوربية في التسيير، وجعله يستجيب للحاجات الاجتماعية للأفراد[1].

أ- تفعيل القضاء:

يعتبر بعض الدارسين للتاريخ التونسي الحديث، أن النظام القضائي في تونس كان معقدا، ويرجع الأستاذ "**سمير المنجي**" ذلك كون تونس بلدا إسلاميا، كانت تطبق التشريع الإسلامي بالإضافة الى جميع القضايا المتعلقة بالحقوق المدنية، وكان هذا التشريع يطبق من طرف المحاكم الشرعية التي كانت تقوم على تنظيم فوضوي تقليدي، كما استغل خير الدين وظيفته كوزير أكبر سنة **1873**[2]، فأنجز عدة أعمال ساهمت في تحسين مجالات القضاء وهي:

- تأسيس محكمة الوزارة، التي أسسها خير الدين، وهي عبارة عن قسم من أقسام الوزارة الكبرى، تهتم بالنوازل، غير أن هذه المحكمة كانت تحضيرية فقط، فهي تشكل القضايا على شكل معاريض تعرض على الباي لتوقيعها، والجديد فيها يكمن في أحداث دائرتين مدنية وجنائية وتأثر بالقضاء المعمول به في الدول الأوربية[3].
- تأسيس محكمة الأحبار، وهي محكمة خاصة باليهود تطبق فيها تشريعاتهم الخاصة.
- إنشاء مجلس مختلط، فكانت أول محكمة مختلطة للتجار، حرص خير الدين على تأسيسها لتعويض المحاكم القنصلية التي تشكل خطرا واضحا على السيادة الداخلية والخارجية[4].

كان من أهم المجالات الإصلاحية التي تطرق اليها خير الدين في نشرة وزارية لتنظيم الهياكل القضائية الجديدة اعتمادا على سلسلة من التشريعات والإجراءات، قال عنها بيرم الخامس بأنها تهدف الى قطع وجوه تطويل الخصومات ودفع تعارض الأحكام[1].

---

[1] عبد القادر دوحة، **المرجع السابق**، ص 212-213.

[2] نقولا زيادة، تونس في عهد الحماية، **المرجع السابق**، ص 67.

[3] الشيباني بن بلغيث، **النظام القضائي في البلاد التونسية (1867-1927م)**، مكتبة علاء الدين، صفاقس، ص 268.

[4] الشيباني بن بلغيث، **المرجع السابق**، ص 270.

تبعا لذلك قام خير الدين بتشكيل شبكة من العلماء ورجال الدين، دورها ترتيب للحكم اشتمل على 60 فصل، ينظم مختلف الجوانب القضائية، ثم جعل خير الدين الشريعة الحاضرة، بالنظر على بقية المحاكم الأخرى، أي انه جعلها في مرتبة عليا تمكنها من إبطال الأحكام الصادرة عن المحاكم الأخرى المنتشرة عبر كامل المدن، أما فيما يخص القوانين العرفية، فقد تم ترتيبها هي الأخرى ترتيبا يتماشى مع ضرورات الوقت، بحيث تم تقنين عرف الفلاحة والخماسة، وتحسنت العلاقات بين الفلاح والخماس[2].

وعلى صعيد أخر، فإذا كانت مسألة إصلاح الجهاز القضائي تخص في المقام الاول ضمان حقوق الأهالي وإعلاء شأن القانون فان مسالة المجالس المختلطة التي تخص الأجانب، كانت مسالة معقدة، لأنها تخص جانبين مترابطين وهما الاصلاح والسيادة الوطنية، مع ذلك فقد فكر خير الدين في اعتماد تشريع مدني للحقوق المختلفة بين المسيحيين والمسلمين[3].

ب- إصلاح الأوقاف

لقد فرض انتشار الأوقاف وتنوع أصناف وأهمية مداخليه وجود هيئة تشرف عليه وتسيره تتكون من مجموعة من الموظفين، الذين أصبحوا يشكلون شريحة اجتماعية تستمد صلاحياتها من الأحكام المتعلقة بالوقف، التي يعود النظر فيها إلى المجلس الشرعي ومن هنا يبرز لنا بجلاء مدى ارتباط الوقف بالنظام القضائي للدولة، فهم خير الدين الدور الذي يجب إن يلعبه النظام الوقفي في المجتمع، ومن هنا بدأت محاولاته الأولى لإصلاحه انطلاقا من قانون عهد الأمان لذلك ففي الفترة الدستورية هذه عمل خير الدين على إصدار منشور سنة **1858** ،لكنه كان محدودا فيما يخص مراقبة الحسابات رغم انه أسس لإدارة مركزية وللأوقاف العمومية[4]

دعم هذا المنشور بمنشور **جوان 1860** ،والذي أعطى للإدارة حق مراقبة الأوقاف، أما منشور جويلية **1860** ،فقد حدد دور الحكومة في التفتيش والمراقبة بالإضافة إلى إيفاد تقرير سنوي للحكومة عن حالة الأوقاف العامة وكان إنشاء جمعية الأوقاف بناء على المنشور الصادر في جوان 1874 ،والذي أقر

---

[1] عبد القادر دوحة، **المرجع السابق**، ص 214.

[2] الشيباني بن بلغيث، **المرجع السابق**، ص 301.

[3] عبد القادر دوحة، **المرجع نفسه**، ص 216.

[4] عبد القادر دوحة، **المرجع السابق**، ص 219.

أن يكون على رأس الجمعية مجلس إدارة يتكون من رئيس ونائب رئيس وعضوين وحظيت هذه الجمعية بناء على المنشور المذكور بالاستقلالية عن السلطة السياسية، مع احتفاظها بالوصاية عليها، كما تمتعت بالشخصية المدينة والاستقلالية المالية بحيث كانت تدافع عن حقوقها أمام المحاكم الشرعية .وهدف هذه الجمعية هو المحافظة على الأحباس خاصة بعد تنصيب اللجنة المالية لمراقبة الميزانية التونسية فكان لابد من إنشاء هيكل دستوري منظم يحمي الأراضي التونسية من خطر الرأسمال الأوروبي، إضافة إلى العناية بهذه الاراضي واستصلاحها حتى تؤدي دورها الاقتصادي والاجتماعي ولهذه الجمعية رئيس ونائب وعضوان وواحد وعشرين كيلا في مختلف جهات البلاد كلفوا بمراقبة العقود بصفة دورية في إطار مهام التفتيش، ويروي بيرم الخامس الذي تولى إدارة هذه الجمعية، بأن خير الدين قد عين أناس ثقاة لتقويم وتقدير ما يكفي لإصلاح الأملاك الموقوفة والذي تم تقديره بحوالي ثلاثة ملايين ريال «أقيمت بفضله الجوامع والمساجد في كل الجهات وما يبين لنا نجاح خير الدين في سياسته هذه هو ارتفاع المداخيل السنوية وهو ما أكده بيرم الخامس بقوله: «كان دخله في السنة الأولى من مباشرتي وهي سنة 1876 حوالي مليون ومائتي 4ألف ريال« أما ما يمكن استخلاصه في هذا المقام هو أنه بالإضافة إلى أهمية الوقف في تعزيز الرابطة الروحية، تكمن أهميته فيما جعله خير الدين من أثر على الحياة الاجتماعية[1].

فبفعل مردوده كان ينفق على السلك الديني والمدرسين والطلبة، ولذلك فقد كان مردود الأوقاف يشكل المصدر الوحيد لرعاية الخدمات الثقافية والدينية، وشمل حتى عدة مجالات مثل الإحسان إلى الفقراء وتقديم العون وتوزيع الصدقات، وزيادة على ذلك فإن العناية بالوقف ساعدت على توسيعه وانتشاره بما يؤدي ذلك إلى تماسك الأسرة التونسية، وحفظ حقوق الورثة كما أن تنظيمات 1الوقف وأحكامه ساهمت في تنظيم العلاقات الأسرية والاجتماعية[2].

ثالثا: الإصلاحات الثقافية

كانت الأوضاع الثقافية في تونس خلال تلك الفترة، تقوم على أسس تقليدية، هدفها تلقين المتعلم ما يمكنه من فهم دينه واكتساب لغة القرآن، كما كانت هذه الأسس والقواعد التعليمية لا تخضع لقوانين ضابطة ولا إلى برنامج مسطر، ولم تعرف الحياة الثقافية والتعليمية اهتماما من طرف السلطة إلا في

[1] **المرجع نفسه**، ص 220.

[2] عبد القادر دوحة، **المرجع السابق**، ص 220.

عهد أحمد باي الذي أعطى أهمية للجانب التعليمي، كما سبق وذكرنا، وأيده في ذلك الوزير المصلح خير الدين باشا عندما تولى الوزارة الكبرى، فساهم بإدخال إصلاحات عديدة في هذا الجانب، ومن هنا نطرح التساؤل التالي: فيما تمثلت إصلاحات خير الدين في الميدان الثقافي والتعليمي؟ وما هي الآثار الناتجة عنها؟

سعى خير الدين إلى إدخال إصلاحات علمية وثقافية أقامها على أربعة أركان أساسية، على حد تعبير محمد الفاضل ابن عاشور، وكان أثرها بعيدا في التطور الفكري والنهضة الأدبية في تونس وهي[1]:

1. إنشاء المدرسة الصادقية؛
2. تنظيم التعليم الزيتوني؛
3. إنشاء المكتبة العبدلية؛
4. تشجيع الطباعة والصحافة والنشر.

أساتذة فرنسيين، وأما تعليم اللغة التركية استحضر له أساتذة من الأستانة[2]. أما عن شروط القبول بالمدرسة فيقبل التلاميذ من سن السابعة إلى الخامسة عشر عاما في السنة الأولى، وفي السنوات الموالية من سن السابعة إلى سن العاشرة والعدد المعلن عنه للقبول 150 2تلميذا من العاصمة و50 من داخل البلاد، وأنشأ خير الدين إقامة خاصة لتلاميذ بالمدرسة وتوفر المدرسة زيادة على ذلك، الأكل والملبس والمسكن مجانا[3].

واعتبر التعليم فيها ذا درجتين أوليين وثانوية، مع تنسيقه مع التعليم الزيتوني، بحيث يصح أن ينتقل الطالب، في رتبة معينة من الدارسة الثانوية، لاكتمال دراسة العلوم الدينية بجامع الزيتونة أو لإتمامه التعليم العصري إلى غايته، أما المكتبة "العبدلية" فهي مكتبة حديثة أنشأها خير الدين تحت اسم "العبدلية" على نمط المكتبات الحديثة، نظمها تنظيما عصريا على نحو ما عرف اليوم، من حيث ترتيب الكتب ووضع 5 فهارسها ومحتوياتها وطريقة تداولها بين القراء[4].

---

[1] محمد الفاضل بن عاشور، **المرجع السابق**، ص 46.

[2] نقولا زيادة، **المرجع السابق**، ص 63.

[3] عبد القادر دوحة، **المرجع السابق**، ص 87.

[4] **المرجع نفسه**، ص 89.

أما بالنسبة للكتب الموجودة في هذه المكتبة فقد قام خير الدين بجمعها من مختلف المدارس والمساجد بتونس، ووهب لها من عنده ألفا ومائة كتاب مخطوط، كما قام بتحسين مطبعة الدولة ووكل إليها نشر الكتب العلمية والأدبية وأصلح «الرائد التونسي»، وشجع على نشر المقالات فيه، فكان ينشر فيها أفكاره السياسية التي ألزم الموظفين بقراءتها[1].

ويعتبر تشجيع خير الدين التونسي للطباعة والصحافة والنشر من أقوى الأركان الأربعة أثار في تطور الحياة العلمية والفكرية في تونس. لم تلعب الطباعة دورها الفعال منذ تأسيسها في تونس كما أصبحت عليه في عهد خير الدين، إذ منذ تأسيسها سنة1860لم تطبع إلا 68 كتابا، في حين عرفت خلال فترة حكم خير الدين انتعاشة ملحوظة، بعد أن قام ببعث النشاط فيها، ووسع نشاط النشر بها بالإكثار من نشر الكتب الأدبية والتاريخية، وربط تونس بمركزي النشـ ر الهامين في العالم العربي وهما بيروت والقاهرة، فكثرت المراسلات والمبادلات، واتسع باب جلب الكتب المطبوعة من المشرق إلى تونس[2].

ويبرز اهتمام خير الدين بالصحافة عندما تتصفح الرسائل التي قام بإرسالها إليه الجنرال حسين بصفة مستمرة منذ 1865[3]، كما استعمل الصحافة الأوروبية للتعريف بكتابه، ويتضح ذلك من خلال المراسلات التي كانت بينه وبين حسين الذي تكفل بطبع ترجمة كتاب" أقوم المسالك "في كل من باريس ولندن، وقد طمأنه هذا الأخير في أحد مراسلاته بأن المقدمة ومضمونها وقد نالت إعجاب العديد من الناس، كما أن رغبة خير الدين في معرفة إنجازات حكومته داخليا وخارجيا دفعه إلى بعث جريدة "الرياض التونسي"، حيث أصبحت هذه الجريدة تمثل الصوت الرسمي وقناة تواصل بين الحكومة والشعب بالإضافة إلى دورها التربوي، تصدر بصفة دورية بفضل جهود محمد بيرم ومحمد السنوسي. وقد استغل خير الدين الصحافة الأغراض السياسية، ويظهر ذلك من خلال مقاله "حماية المحتمين"، التي حث فيها على التسامح في معالجة وضع الأقليات الغير إسلامية، وذلك لكسب ود الدول الغربية[4].

ت- اصلاحات الجيش عند خير الدين:

[1] أحمد أمين، **المرجع السابق**، ص 169.

[2] عبد القادر دوحة، **المرجع السابق**، ص ص 90-91.

[3] محمد الفاضل بن عاشور، **المرجع السابق**، ص47.

[4] عبد القادر دوحة، **المرجع نفسه**، ص ص 90-91.

يتناول خير الدين هذا الموضوع ضمن حديثه عن الصناعة الحربية، فهو قبل ان يُبرز أهمية الاصلاح في هذا المجال وإبعاده، استشهد بقول احد الأوربيين مفاده، أن الممالك التي لا ينسج على مجاوريها ، فيها يستحدثونه من المواد الحربية، والتراتيب العسكرية وشك أن تكون غنيمة لهم أو بعد حين، فمن هذا التنبيه والتحذير انطلق في دعواه الى تحديث الجيش، خصوصا مجال الصناعات الحربية، واعيا المسلمين الى ضرورة اللحاق بما أحرزه الخصم من وسائل المدافعة، مستشهدا بقوله عليه الصلاة والسلام: "من قاتل فيقاتل كما يقاتل"، وفي وصية أبي بكر الصديق الى خالد بن الوليد في حرب الردة: "أذا قاتلت القوم فقاتلهم بالسلاح الذي يقاتلونك به، السهم بالسهم، الرمح بالرمح، والسيف بالسيف"، ولو أدرك هذا الزمان لأبدل ذلك بمدفع الشخشخان، ولا يحصل بدونها الاستحداث، والواجب شرعا الذي يستوجب معرفة قوة المستعد له، والسعي الى تهيئة مثلها أو خير منها، ومعرفة الأسباب المحصلة له[1].

بهذه الفقرة الموجزة لخص خير الدين دعوته لتجديد الجيش ، دون الغوص في أساليب وطرق التحديث هذا، وربما كان مدركا للإيقاع الذي تسير به حركة التطور والتقدم في الميدان العسكري، ولعل استشهاده بمقولة الأوربي وتحذيره من مغبة الأحجام عن الأخذ بأسباب المدينة الحديثة، نبهته الى واجب النهوض بإصلاح الجيش، فالمقصود بالجملة ولا يحصل الاستعداد، رأي الاختراعات الواجب شرعا في تنبيه القائمين على شؤون الأمة الذين أهملوا هذا الجانب، وهو ما يخالف الشرع وبالتالي ترك الجهاد وما يتطلبه من تجنيد الأمة وامتلاك وسائل الدفاع عن بيضة الاسلام، إذ لا يعفني الاستعداد إلا بترك الجهاد، وهو نقض لفريضة دينية، لكنه لم يشر الى كلمة الجهاد أصلا، ثم قوله: "ومعرفة الأسباب المحصلة له، ويعني لها الصناعة الحربية، والتي أقاموها على أساس من الرياضيات والفيزياء التجريبية".

إنه يرى أن العالم الإسلامي في حالة هوان، ومن ثم الواجب يقضي للدفاع عنه، وهذا لا يتحقق إلا باستعادة القوة، وما الأخذ بالتعاليم الحربية التي استحدثها الغرب جزء من هذا الإعداد الذي يحض عليه الدين.

أن خير الدين كان واعيا بما يقول بخصوص هذا الجانب، لأنه من ابن المؤسسة العسكرية، وتقلد عليا فيها بل كان مشرفا على مكتب العلوم الحربية منذ تأسيسه في عهد احمد باشان ومن ثم لم يكن خافيا عليه

[1] خير الدين التونسي، **المصدر السابق**، ص 94.

الطرائق الموصلة الى ذلك، ومن الأساليب الخاصة بهذا الشكل باختصار فإن الواقع بضرورة مجارات الخصم والتفوق عليه[1].

المبحث الثاني: إسهامه في إصلاح الأوضاع بالدولة العثمانية:

عاش خير الدين في قصره بعيدا عن الحياة العامة عقب تقديمه الاستقالة، الى أن طلبه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني لكي يستفيد من جهوده في الاصلاح، وهنا انتقل الى استانبول **سنة 1878**م تلبية لنداء الباب العالي، كلما تعلق الأمر بمساعدة الدولة العثمانية، وهناك آلت إليه رئاسة لجنة مهمتها مراجعة الوضع المالي للدولة العثمانية، وفي 4 ديسمبر 1878 عينه السلطان عبد الحميد الثاني صدرا أعظما[2].

وخلال هاته الفترة تكالب الأعداء على الدولة العثمانية وهزمت أمام روسيا في الحرب، إلا انه بفضل مجهوداته وحنكته أعاد ترتيب الأوضاع الداخلية للدولة العثمانية بعد الانتكاسة الكبيرة التي لم تسفر فقط على خسارة الإمبراطورية العثمانية في جزء كبير من مقاطعاتها، بل تحولت الى ممالك وإمارات مستقلة بحد ذاتها، والتي أدت أيضا الى اقتطاع مناطق هامة من تخومها الشرقية، والتي أفضت بصورة غير مباشرة الى حصول أزمة اقتصادية واجتماعية عويصة كان من اللازم معالجتها دون تأخير[3].

إلا أن الجهود الجبارة التي بذلها خير الدين سرعان ما أتت أكلها، بالرغم من المؤامرات المدبرة من قبل بعض كبار الموظفين، وتمكن في وقت وجيز من تصفية مخلفات الحرب وتطهير مالية الدولة شيئا فشيئا، والسعي الى إيواء اللاجئين الوافدين الى العاصمة بإعداد غفيرة وتوزيعهم على

---

[1] فريد حاجي، **المرجع السابق**، ص ص 18-19.

[2] عبد القادر دوحة، **الإصلاحات السياسية والإدارية لخير الدين التونسي فينتصف القرن 19 وعلاقتها بالحضارة الغربية**، مجلة العصور الجديدة، ع11، جامعة وهران، (د.ت)، ص 104.

[3] الصادق الزمرلي، **المرجع السابق**، ص 106.

مختلف الأقاليم، وإعادة النظام الى الولايات وضبط الحدود الجديدة، وأخيرا احتلال المواقع الإستراتيجية في المناطق الأسيوية من تركيا، التي استبقتها المعاهدات للإمبراطورية[1].

بعد ذلك استطاع التفرغ للقضية المصرية التي جعلها من أوليات الباب العالي، وأهم أشغاله بوضع حد لسياسية إسماعيل الخديوي، التي كانت مضرة على حد سواء بالإمبراطورية العثمانية، وبمصالح أهالي وادي النيل المستغلين بدون شفقة أو رحمة[2].

تطرقت هاته الفترة للبرنامج الذي كان خير الدين اقترحه على عبد الحميد الثاني لكنه رفض واعتزل بعده السياسة وما فتئ يحذر من أن وضع الإمبراطورية العثمانية سيء جدا، ويشير الى أن مصيرها سيكون الانهيار، إذا لم يبادر بإصلاحات جذرية، ورأى أن أهم هذه الإصلاحات تتمثل في:

1/-إنشاء مجلس وطني؛

2/-جعل الحكومة مسئولة أمامه؛

3/-إعادة تنظيم الولايات[3].

وقد اقترح تنظيم مقاطعات الإمبراطورية على أساس التفويض لحكام الأقطار مع بقاء هؤلاء تحت سيادة الإمبراطورية.

إذن وجود هذا البرنامج يصحح الفكرة الشائعة التي تقول أن خير الدين لم ينجح في مهمة الصدر الأعظم، لم بكن عالما بأحوال الخلافة، فالسبب الحقيقي في عدم نجاحه انه كان يحمل مشروعا مناقضا لما كان يضمره عبد الحميد الثاني.

---

[1] أحمد عبد السلام، **المرجع السابق**، ص 373.

[2] الصادق الزمرلي، **المرجع نفسه**، ص 108.

[3] محمد الحداد، **المرجع السابق**، ص 100.

إن خير الدين عندما تولى منصب الصدر الأعظم، كان مقتنعا بضرورة عزل إسماعيل باشا، وكان يريد أن يعيد مصر الى السيادة العثمانية، لأنه يرى أن أي بلد يستقل بنفسه، سيقع عاجلا أم آجلا تحت نفوذ الدول الأوربية[1].

كما عرف عن خير الدين انه لم يتقاعس عن تقديم يد الإعانة والدعم للدولة العثمانية، ولو كانت متواضعة خلال الفترة التي قضاها على رأس الوزارة في تونس، وهو كان ينادي دوما وأبدا الى توثيق العلاقات بين بلاده والباب العالي، وقد بادر خير الدين الى اجتماع بمشاركة 100 شخص، من كبار الموظفين والعلماء والأعيان، وأوضح للحاضرين شرعية الطلب العثماني المرتكز على التزامات الجانب التونسي، ورغم قلة الموارد المالية والعسكرية الايالة، واقترح على الأهالي تقديم إعانة مالية للحكومة العثمانية عن طريق الاكتتاب[2].

المبحث الثالث: مدى تجربة خير الدين الإصلاحية:

إن الدراسات الجديدة التي خص بها الباحثون العرب على خير الدين التونسي وآراءه، تؤكد أهمية الدور الذي قام به في مجال الاصلاح السياسي والاجتماعي والنهوض بالبلاد التونسية، إلا أن هذه "**التجربة الإصلاحية**"، أثبتت محدوديتها لعدة عوامل أبرزها:

الدول الأوربية ودورها في إعاقة الاصلاح في تونس، حيث نجحت هذه الدول في تكوين عناصر متواطئة وترعى مصالح الدول الغربية، مثل مصطفى خزندار، محمود بن عياد، مصطفى بن إسماعيل...[3].

لذلك نجد علال الفاسي يقول: "اصطدم خير الدين أثناء تطبيق آراءه الحديثة في تونس بعقبتين كبيرتين أولهما استبداد الوزير الأكبر مصطفى خزندار...، وثانيهما مشايخ الدين الذين

[1] محمد الحداد، **المرجع نفسه**، ص 101.
[2] الصادق الزمرلي، **المرجع السابق**، ص 103.
[3] زهير الذوادي، **المرجع السابق**، ص 183.

لهم نفوذ مطلق على ذهنية الأمة، مع عامل ثالث يمثل تخوف الشعب التونسي من الإصلاحات التي كانت تقتبس من الغرب، باعتبارهم أن كل شيء غربي يمس بكيان الأمة ووجودها"[1].

بالإضافة الى المعارضة الى المعارضة التي تلقاها من البايات الذين تعامل معهم، والذين كانوا يميلون الى تعزيز استقلالهم عن الدولة العثمانية رغم حالة العنف التي تشهدها الايالة، ومن جهة عدم قوة السلطة العثمانية الدخول في صراع مع الدول الأوربية بسبب مصير الايالة التونسية[2].

رغم محدودية الإصلاحات التي قام بها خير الدين، إلا أن جهوده تجلت في مدة زمنية من العمل، واستطاع ترك بصمات في مختلف مجالات الحياة، من خلال تجسيده لعدة مجالات إصلاحية من المدرسة الصادقية[3]، التي أخرجت نخب وإطارات قادت الحركة الوطنية أثناء الفترة الاستعمارية، واستلهمت الفكرة الإصلاحية من عمل وفكر خير الدين، وعمقت الوعي الاجتماعي والسياسي وحولته الى عمل وطني[4].

هذه الإصلاحات ليست جوهر البرنامج الإصلاحي الذي طمح إليه، لكن الأركان الأربعة التي ذكرها محمد الفاضل ابن عاشور شكلت مقدمة أساسية لباقي حلقات العمل الإصلاحي الذي خاضه خير الدين[5]، حيث ساهمت في نسج قوة المقاومة الحضارية والثقافية للهيمنة الاستعمارية على تونس، منذ فرض الحماية الفرنسية (**1881**)، بالعمل على تمتين أسس ومقومات الشخصية الثقافية التونسية وهويتها الوطنية التي شكلت القاعدة للوعي الوطني والكفاح التحرري[6].

---

[1] علال الفاسي، **المصدر السابق**، ص 42.

[2] عبد القادر دوحة، **المرجع السابق**، ص 91-92.

[3] محمد الحداد، **المرجع السابق**، ص 97.

[4] زهير الذوادي، **المرجع السابق**، ص 133.

[5] **المرجع نفسه**، ص 133

[6] **المرجع نفسه**، الرجع السابق، ص 135.

كانت النخبة التونسية أخذت بزمام الحركة الوطنية، مشبعة بأفكار ومبادئ ومناهج، حيث تلقوا تعليما عصريا بالمدرسة الصادقية، التي كان فوجها الاول بمثابة همزة الوصل بين الحركة الإصلاحية والحركة الوطنية التونسية، لذلك كانت جميع الأفكار الإصلاحية تبنى على التفتح والحداثة والمساواة أمام القانون والعدالة والحرية والديمقراطية، بمثابة الثوابت في تاريخ الحركة الوطنية[1].

أما بالنسبة للمرحلة الثقافية للحركة الوطنية التونسية التي جلت مباشرة انتصاب الحماية الفرنسية، وتمثلت في جريدة الحاضرة والجمعية الخلدونية وجمعية قدماء الصادقي[2].

تم تأسيس جمعية قدماء الصادقية في **23 ديسمبر 1905م**، وكان هدفها نشر الأفكار العصرية التي تميز بها العهد الصادقي، وتغيير عقلية الشعب التونسي والالتحاق بركب التقدم والمعاصرة، وهذا النشاط مثله نشاط جريدة الحاضرة، والجمعية الخلدونية، كان أساسا إصلاحيا يندرج في نطاق التيار الإصلاحي الذي ازدهر بتونس قبل انتصاب الحماية[3].

نستنتج مما سبق أن اصلاحات خير الدين، كان لها اثر كبير في النهوض في البلاد وتطورها، رغم ما تعرض له من مشاكل وضغوطات داخلية وخارجية، لكنه عمل على تغيير أوضاع الايالة التونسية الى الأحسن، لذلك كان منطلق خير الدين وغايته السعي الى حل هذه ألازمة من خلال محاولة تجسيد أفكاره الإصلاحية المدونة على كتابه، متأثرا بالحضارة الغربية وأفكار المصلحين الذين عاصرهم، حيث قام باستغلال ما توفره من وسائل و أساليب، من اجل القيام بمشاريع سياسية، اقتصادية، واجتماعية، وعمل على النهوض باقتصاد البلاد من خلال الاهتمام بالزراعة والصناعة، والتخفيف من الضرائب وكذا التجارة والمال، الذي اعتبره ركيزة أساسية في ازدهار اقتصاد الدولة ورفاهية المجتمع، وكما اهتم بالقضاء والوقف وقام بتأسيس المدرسة الصادقية التي تخرج منها النخبة من الشباب التونسي التي قادت الحركة الوطنية، إلا أن

---

[1] علي محجوبي، **المرجع السابق**، ص 13.

[2] **المرجع نفسه**، ص 14.

[3] **المرجع نفسه**، ص 16.

التجربة الإصلاحية أثبتت محدوديتها، بسبب الأزمات ومحاولات إعاقة المشاريع الإصلاحية، من أطراف في الداخل والخارج، جعلته يفشل في أخر المطاف في تحقيق أهدافه الإصلاحية.

الخاتمة

من خلال دراستنا للموضوع، وبناءا على مختلف جوانبه، وفقا للخطة، توقفنا على مجموعة من المحطات التاريخية، ميزت شخصية خير الدين التونسي، حياته وأطروحاته الإصلاحية، نستنتج مجموعة من النقاط:

1-خير الدين باشا يعتبر قادة ورمزا من رموز الاصلاح في تونس، ودليل ذلك تجربته الإصلاحية في القرن التاسع عشر، وقد برز في وقت كانت فيه البلاد التونسية تعاني من الأزمات الداخلية والأخطار الخارجية المهددة لاستقلالها، بالرغم من كل الصعوبات التي مرت بها البلاد والتحولات العالمية، إلا أن هذا الأخير استطاع تغيير الوضع نوعا ما.

2-تعتبر شخصية خير الدين التونسي بارزة على مر التاريخ، بفضل اطلاعه على أحوال العالم من ثقافة عصرية، وإصلاحاته لأنظمة الدولة، وعمل على سن قوانين عديدة لتنظيم النشاطات السياسية والاقتصادية والإدارية.... الخ.

3-كان خير الدين باشا رجل سياسي تولى العديد من المناصب الفعالة في تونس، أهمها منصب الوزير الأكبر، فسخر هذه الوظيفة لخدمة أهدافه المسطرة في كتابه الشهير "**أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**"، في سبيل النهوض بالبلاد.

4-سارت الأمور عكس ما تمناه خير الدين باشا، بسبب الجهات المعادية التي قطعت كل الآمال في إصلاح البلاد مما جعله غير قادر على تطبيق أفكاره.

في الأخير نستنتج من رغم اصلاحات خير الدين باشا، إلا أن ثمار جهوده في إصلاح البلاد واضحة، كإنشاء المدرسة الصادقية التي خرجن نخب وقادات البلاد التونسية في فترة الحماية الفرنسية على تونس

الملاحق

الملاحق

الملحق رقم (01): خير الدين التونسي

[1]

[1] خير الدين التونسي، **المصدر التونسي**، ص 80.

الملحق رقم (02): الوزير مصطفى خزندار

2

[2] خير الدين التونسي، **المصدر السابق**، ص 20.

الملحق رقم (03): كتاب أقوم المسالك لخير الدين التونسي

كتاب

أقوم المسالك

في معرفة أحوال الممالك

تأليف

الفهيم العالم الفهامة فارس الكتائب والبراع الهمام

جامع الذرى امير الامرا

السيد خير الدين التونسي

ابقاه الله قدوة لكل مرتقي

طبعة اولى

بالمطبعة العمومية من المحمية العلية

صانها وايدها رب البرية

في مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحمية

١٢٨٧

3

[3] خير الدين التونسي، **المصدر السابق**، ص 77.

الملحق رقم 4: المدرسة الصادقية

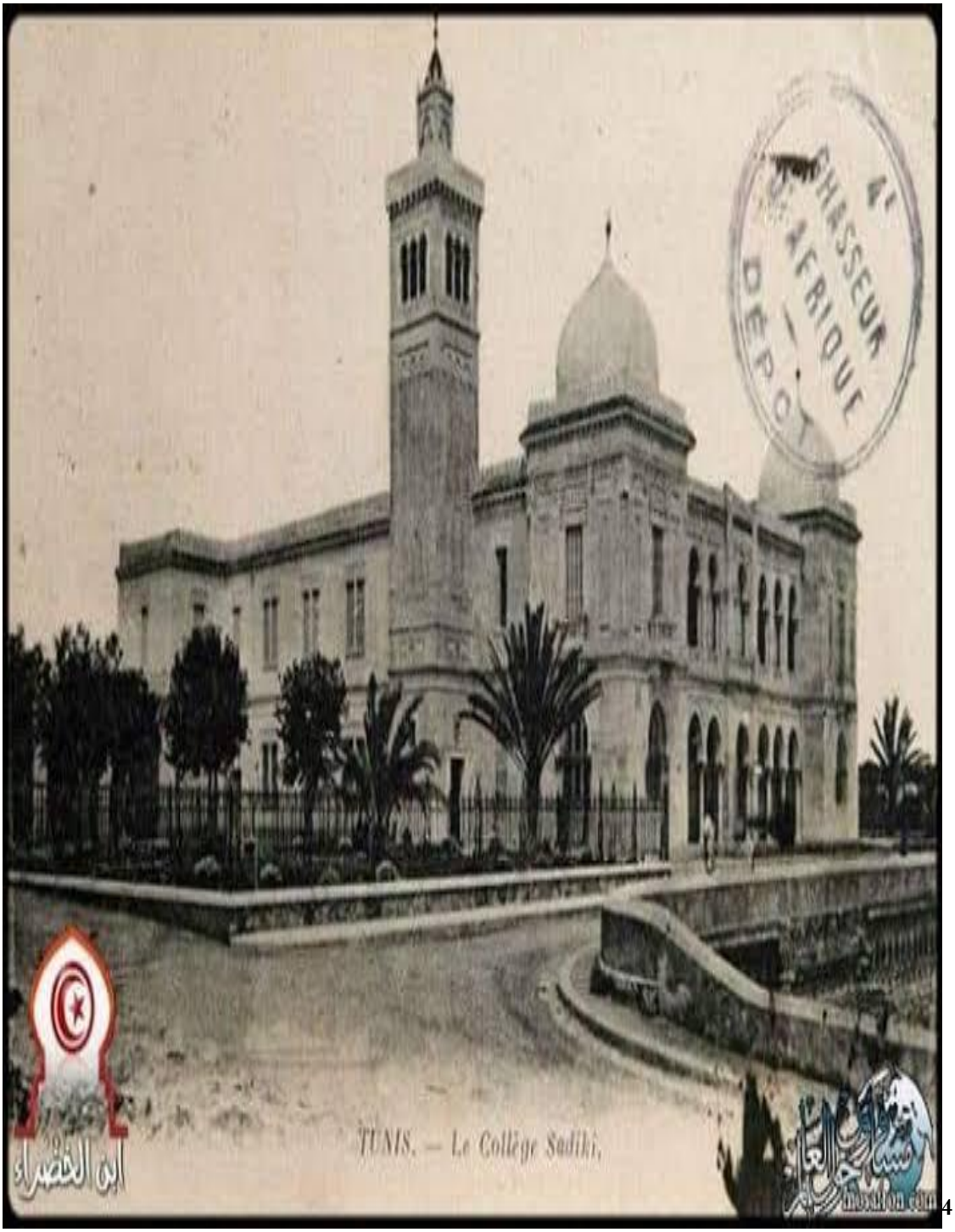

[4]

[4] خير الدين التونسي، **المصدر السابق**، ص13.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

أ-المصادر:

- ابن أبي الضياف، احمد، إتحاف أهل الزمان بإخبار ملوك تونس وعهد الأمان، م2، ج4، تح، الدار العربية للكتاب.
- ابن أبي الضياف، احمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، مج2، ج3، تح، لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس 1999.
- ابن خوجة محمد، صفحات من تاريخ تونس، حمادي الساحلي، الجيلالي بن الحاج يحي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
- بيرم محمد الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تح، علي بن طاهر الشنوفي، مج2، ط2،بيت الحكمة، تونس، 1999.
- التونسي، خير الدين، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تح، منصف الشنوفي، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986.
- الثعالبي عبد العزيز، تونس الشهيدة، تر وتق، سامي الجندي، ط1، دار القدس، بيروت، 1975.
- الحبيب ثامر، هذه تونس، مطبعة الرسالة، مكتب المغرب العربي.
- الزركلي خير الدين، الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج2، ط1، العلم للملايين، بيروت، 2002.
- الزمرحي الصادق، أعلام تونسيون، تق وتع، حمادي الساحلي، ط1، العرب الإسلامي، بيروت، 1986.
- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ط6، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003.

ب- المراجع:

- ابن عاشور محمد الفاضل، أعلام الفكر وأركان النهضة بالمغرب العربي، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000.

- أبو حمدان سميرة، خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب العالمي. بيروت، 1993.
- أمين احمد، زعماء الاصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، لبنان.
- بن لغيث الشيباني، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859-1882)، تق، عبد الجليل التميمي، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، كلية و الآداب والعلوم الانسانية، صفاقص، 1999.
- بوذينة محمد، خير الدين باشا (1238-1308هـ/1823-1890)، ط1، سلسلة مشاهير 104، الشركة التونسية للنشر وفنون الرسم، تونس، 1995.
- التميمي عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي(1816-1871)، ط1، الدار التونسية للنشر،1972 ، جوهر محمد حسن، تونس وشعوب العالم، دار المعارف، بمصر، 1961.
- حاجي فريد، الاصلاح والياته عند ابن العنابي وخير الدين خلال القرن 19، دار كرم الله للنشر والتوزيع، بيروت.
- الذوادي زهير، الاستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية التونسية، ط1، الاطلاعية للنشر، 2006.
- زيادة نيقولا، تونس في عهد الحماية-الأعمال الكاملة، الأهلية للنشر والتوزيع.
- زينب عصمت راشد، تاريخ أوربا الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص 287.
- الشريف محمد الهادي، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ الى الاستقلال، تع، محمد شاوش، محمد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993.
- عبد السلام احمد، مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، ط1، الشركة التونسية للنشر والتوزيع.
- العوراني ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة (1798-1939)، تر، كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت.
- اللواب حبيب حسن، أبحاث ودراسات في تاريخ المغرب العربي المعاصر، وزارة الثقافة، الجزائر.
- المحجوبي علي، ما يجب أن تعرف عن انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، سراس للنش، تونس، 1986.
- محفوظ محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982.

- محمد مخلوف، شجرة النور التركية في طبقة المماليك، دار الكتاب العربي، بيروت.
- مقلاتي عبد الله، المرجع في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، -الجزائر، تونس، المغرب، ليبيا، ديوان المطبوعات الجامعية.
- هشام سوادي، تاريخ العرب الحديث (1516-1918) من الفتح العثماني الى نهاية الحرب العالمية الأولى، ط1، دار الفكر، عمان، 2010.
- ياغي إسماعيل واحمد شاكر محمود، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج2، ط1، دار المريخ للنشر، الرياض، 1993.
- يحي جلال، المدخل الى تاريخ العالم العربي الحديث، دار المعارف، مصر، 1965.

ت- الدوريات:

- دوحة عبد القادر، "الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية لخير الدين التونسي في منتصف القرن 19 وعلاقاتها بالحضارة الغربية"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع11، جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، ديسمبر 2016.
- دوحة عبد القادر، "الإصلاحات السياسية والإدارية لخير الدين التونسي في منتصف القرن 19 وعلاقاتها بالحضارة الغربية"، عصور الجديدة، ع11-12، جامعة وهران، 1434-1435هـ/2014-2015م.
- محمد الحداد، "لماذا يظل خير الدين معاصرا لنا"، في خير الدين التونسي، واقع الندوة التي انتظمت، بيت الحكمة، (4 ماي 2010)، ط1، المجتمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، قرطاج، 2011.

ت- الرسائل الجامعية:

- حاجي فريد، عرض لنظرة العنابي وخير الدين التونسي الاصلاح-المسعى والمآل، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الانسانية، بوزريعة، 2001.
- شايب قرارة، حزب الشعب الجزائري (1934-1954) دراسة مقارنة، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010-2011.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات:

الإهداء والشكر	
جدول المختصرات	
مقدمة	أ-ث
الفصل الأول: تونس والدولة العثمانية عصر خير الدين التونسي	19-8
المبحث الأول: الخصائص العامة للحالة السياسية	8-12
المبحث الثاني: البيئة الثقافية والاجتماعية	12-16
المبحث الثالث: الواقع الاقتصادي	19-17
الفصل الثاني: خير الدين التونسي سيرة ومسار	35-20
المبحث الاول: المولد والنشأة	25-21
المبحث الثاني: تكوينه وثقافته	27-25
المبحث الثالث: وظائفه ومهامه	31-27
الفصل الثالث: أفكاره الإصلاحية مجالات-مرتكزاته	55-36
المبحث الاول: برنامجه في الإصلاح السياسي والاقتصادي والعسكري	39-37
المبحث الثاني: اسهامه في اصلاح الأوضاع بالدولة العثمانية	50-39
المبحث الثالث: صدى تجربة خير الدين الاصلاحية	53-50
الخاتمة	57-56
الملاحق	63-58
قائمة المصادر والمراجع	67-64
فهرس المحتويات	69-68
الملخص	

الملخص:

تناولت دراستنا لشخصية خير الدين التونسي، والذي يعتبر من الشخصيات البارزة في **القرن 19**، سواء للدولة العثمانية بصفة عامة أو تونس بصفة خاصة، الذي يمثل احد رواد النهضة الفكرية في العالم العربي الإسلامي، ورمز من رموز الحركة الإصلاحية في تونس، حيث سعى الى تنفيذ أفكاره الإصلاحية الذي استلهمها من كتابه "**أقوم المسالك**"، والذي يمكن أن نضعه في مصاف الكتب التي ساهمت بشكل كبير في إيقاض الشعور بالتجديد داخل المجتمعات العربية، ونظرا للمكانة التي اكتسبها خير الدين لدى المثقفين من المشارقة، الذين تأثروا بكتابه وقرروا ترجمته وذكره في مؤلفاتهم، كأحمد أمين والزركلي، وهذا ما جعله يتربع على مسرح الأحداث في الفترة الحديثة، محاولا إصلاح التي كانت تعيشها تونس آنذاك، إلا انه لم يتمكن من تطبيق ما رسمه من أهداف نتيجة من ظروف وأزمات داخلية وخارجية عرقلت مسار الاصلاح.

Résumé:

Notre étude a porté sur la personnalité de Khair al-Din al-Tunisi, considéré comme l'une des figures marquantes du XIXe siècle, Où il a cherché à mettre en œuvre ses idées réformistes, qui s'inspiraient de son livre « Aqwam Al-Masalak », que l'on peut ranger au rang des livres qui ont grandement contribué à éveiller un sentiment de renouveau au sein des sociétés arabes, et compte tenu de la position selon laquelle Khair al-Din a gagné parmi les intellectuels de l'Est, Ceux qui ont été influencés par son livre et ont décidé de le traduire et de le mentionner dans leurs livres, comme Ahmed Amin et Al-Zarkali, et c'est ce qui l'a fait s'asseoir sur la scène des événements de l'époque moderne, essayant de réformer ce que la Tunisie vivait à l'époque, mais il n'a pas été en

mesure de mettre en œuvre les objectifs qu'il s'était fixés en raison de circonstances et de crises internes et externes qui ont entravé le cours de la réforme.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
University Mohamed Boudiaf of M'sila
جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
نيابة العمادة للدراسات والمسائل المرتبطة بالطلبة
Faculty of Humanities and Social Sciences
Vice-Deanship of the College for Studies and Student Issues

الرقم: /2021

تصريح شرفي خاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز بحث

انا الممضى ادناه :

السيد(ة): قنشيخ ياسين

الصفة(طالب، استاذ باحث، باحث دائم): طالب تاريخ معاصر

الحامل لبطاقة التعريف الوطنية رقم: 200337536

الصادرة بتاريخ : 24 - 9 - 2016 عن دائرة : صفرة

المسجل بكلية: العلوم الانسانية قسم: التاريخ

تخصص: تاريخ معاصر تحت رقم التسجيل: 161635101037

والمكلف بإنجاز اعمال بحث(مذكرة التخرج، مذكرة ماستر' مذكرة ماجستير' اطروحة دكتوراه) .

عنوانها: خير الدين التونسي حياته وأعماله واراؤه الاصلاحية

اصرح بشرفي بانني التزم بالمعايير العلمية والمنهجية ومعايير الاخلاقيات المهنية والنزاهة الاكاديمية المطلوبة في انجاز البحث المذكور اعلاه

المسيلة في: .....

امضاء المعني (ة):

المرجع: القرار الوزاري رقم: 933 المؤرخ في: 28-07-2016 المحدد للقواعد المتعلقة بالوقاية من السرقات العلمية ومكافحتها.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
University Mohamed Boudiaf of M'sila
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
نيابة العمادة للدراسات والمسائل المرتبطة بالطلبة
Faculty of Humanities and Social Sciences
Vice-Deanship of the College for Studies and Student Issues

الرقم: /2021

تصريح شرفي خاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز بحث

انا الممضى ادناه :

السيد(ة): بوغزارة محمد الأمين

الصفة(طالب، استاذ باحث، باحث دائم): طالب تاريخ

الحامل لبطاقة التعريف الوطنية رقم: 118626150

الصادرة بتاريخ: 05 - 10 - 2020 عن دائرة: صالح باي

المسجل بكلية: العلوم الانسانية والاجتماعية قسم: التاريخ

تخصص: تاريخ المعاصر تحت رقم التسجيل: 153507 80 81

والمكلف بإنجاز اعمال بحث(مذكرة التخرج، مذكرة ماستر' مذكرة ماجستير' اطروحة دكتوراه) .

عنوانها: خير الدين المرسي حياته وأطروحاته الإصلاحية

اصرح بشرفي بانني التزم بالمعايير العلمية والمنهجية ومعايير الاخلاقيات المهنية والنزاهة الاكاديمية المطلوبة في انجاز البحث المذكور اعلاه

المسيلة في:

امضاء المعني (ة):

المرجع: القرار الوزاري رقم: 933 المؤرخ في: 28-07-2016 المحدد للقواعد المتعلقة بالوقاية من السرقات العلمية ومكافحتها.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
University Mohamed Boudiaf of M'sila
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
نيابة العمادة للدراسات والمسائل المرتبطة بالطلبة
Faculty of Humanities and Social Sciences
Vice-Deanship of the College for Studies and Student Issues

وثيقة ايداع مذكرة ماستر

الموضوع:

حي الدين التوسني حياته وأثر وحاته الاصلاحية

إعداد الطلبة:

1- بيشخ ياسمين رقم التسجيل: 161635161037

2- بوعزارة محمد الخمس رقم التسجيل: 153507880 81

القسم: التاريخ **الشعبة:** تاريخ معاصر **التخصص** تاريخ معاصر

إشراف: خليفي عبد القادر **الرتبة:** أستاذ

أقر بأنني تابعت العمل المذكور أعلاه في جلسات إشرافية طيلة الموسم الجامعي: 2020-2021 وأسمح بإيداعه على مستوى ادارة القسم للمناقشة.

موافقة وإمضاء المشرف(ة):

رئيس فريق الاختصاص

رئيس القسم

رئيس قسم التاريخ